التشيّع في العراق

وصلاته بالمرجعيّة وايران

رسول جعفريان

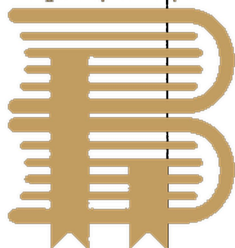


بسم الله الرحمن الرحيم

التشيّع في العراق
وصِلاته بالمرجعية وايران

(نظرة عابرة)

رسول جعفريان



(ترجمة: حيدر مجيد)

فهرس

الفصل الأول

نشأة التشيّع في العراق / ٩

الفصل الثاني

الجغرافية البشرية والسياسية للشيعة في العراق / ٣٧

الفصل الثالث

تنامي حضور الإيرانيين في العراق مطلع القرن العشرين / ٥٥

الفصل الرابع

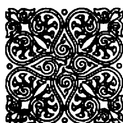
المرجعية الشيعية في العراق وإيران / ٧٣

الفصل الخامس

المرجعية في العراق وتحديات العصر / ١١١



الفصل الأول



نشأة التشيّع في العراق

سبق ظهور التشيع فى العراق ظهوره فى أى نقطة أخرى من العالم الإسلامى، بحيث يمكن القول ان التشيع تبلور أساساً فى البيئة الكوفية، ومن ثم انتشر إلى الخارج. وقد انتقل هذا التشيع من الكوفة إلى بغداد أبان القرنين الثانى والثالث الهجرى يتمدد على الأنحاء الاخرى، خصوصاً فى بغداد والمناطق الوسطى من العراق فى القرن الرابع عقيب ازدياد اهمية مدن الوسط مثل كربلاء والنجف والكاظمية، وبسبب الدعم الذى قدمه البويهيون للمذهب الشيعى حينها.

لقد كان جانب الكرخ محلة شيعية فيما هو اليوم محلٌّ لتواجد السنة، بينما كانت الرصافة منطقة مغلقة على السنة وهى اليوم ذات غالبية شيعية. واستمر التشيع بحضوره القوى فى العراق، وظل الفكر الشيعى ينتهل من ثدى النجف ومن بعدها الحلة. وشهد التاريخ العراقى فى القرن الخامس وما بعده موجات هجرة للطلاب من إيران وحلب وجبل عامل فى لبنان بغية الدراسة الدينية فى الحواضر العلمية الشيعية فى العراق، فكان لهؤلاء المهاجرين أثر فى تعزيز الوجود الشيعى فى العراق من جهة، وساعد من جهة أخرى على نشر التشيّع إلى المناطق التى انطلقت منها حملات الهجرة.

انّ التشيّع فى العراق هو أشدّ صور التشيّع أصالة وتجذراً، ويتزامن من حيث

القدم مع التشيّع الذى ظهر فى قم فى القرنين الثالث والرابع، وقد ألقى بظلاله الوارفة على التشيّع فى مناطق جبل عامل وحلب وإيران، بقدر ما يتعلق الأمر بالأخيرة فان التشيّع الأصيل الذى تبلورت أركانه ودعائمه فى بغداد والنجف والحلة أثّر فى التشيّع الإيرانى على عدة مراحل:

١ ـ تأثير تشيّع القبيلة الأشعرية التى استوطنت قم من القرن الثانى إلى الثامن.

٢ ـ تأثير تشيّع بغداد (وبعدها النجف) على إيران اعتباراً من القرنين الخامس والسادس إلى القرنين الحادى والثانى عشر.

٣ ـ تأثير المدرسة الحلّية على الإيرانيين فى القرنين السابع والثامن إلى القرنين الثالث والرابع عشر.

٤ ـ تأثير مدرسة النجف وجبل عامل على الوضع الشيعى فى إيران بين القرنين العاشر والسادس عشر.(١)

وكان التوسع الشيعى فى العراق وما زال ينطلق عادة من الوسط باتجاه الجنوب إلى جنوبى البلاد مستوعباً بذلك المدن والقصبات التى تشكل بمجموعها عراق الأمس واليوم.

العراق في الحقبة الصفوية ـ العثمانية

بدءاً من القرن العاشر الهجرى، بات العراق منطقة الحدّ الفاصل بين نفوذ أهم قوتين عظميين سياسيتين فى العالم الإسلامى آنذاك ؛ وهما الدولة العثمانية وهو

---

(١) انظر ما أوردناه حول هذا الموضوع فى كتابنا (تاريخ التشيع فى ايران)، ص ٤٧٥ وما بعدها.

الطرف الأقوى فى المعادلة والدولة الصفوية الطرف الأقل قوة ونفوذاً والتى عجز العثمانيون عن إزاحتها نهائياً من الخارطة السياسية للشرق الإسلامى، برغم جدية المساعى التى بذلوها من أجل تحقيق هذا الهدف.

ونظراً لتشيع الصفويين، ظلّت عيونهم مشدودة إلى العتبات المقدسة فى العراق، نجحوا مرتين فى الاستيلاء على بغداد المرة الأولى من ٩١٤ــ٩٤٠هـ والثانية من ١٠٣١ـ ١٠٤٨ هجرية. غير أن هذه المحاولات كانت وقتية ولم يكتب لها الدوام.[1] أما العثمانيون فكانوا يعتبرون أنفسهم أوصياء على التركمان، وبالتالى فان بغداد تدخل فى نطاق حقهم الطبيعى فى حال انِ الدولة العثمانية تبعد عن بغداد آلاف الكيلومترات.

وخلال المقطع التاريخى الممتد من القرن العاشر والحادى عشر إلى القرن الخامس والسادس عشر الميلادى، و بعيد هيمنة الأتراک على الأراضى الايرانية، أصبحت آذربيجان مسرحاً للنزاع العثمانى ـ الصفوى، فكان الصفويون لايخفون رغبتهم فى السيطرة على بغداد والعتبات المقدسة فى العراق فيما يحاول العثمانيون الأمر ذاته، وصار هذا النزاع سبباً فى جعل العراق قبلة اهتمام هاتين الدولتين. هذا فى وقت لم يكن للعرب حينها أى نفوذ فى المنطقة وقد مرت قرون عديدة على آخر حكومة لهم فى هذا المكان. لقد أورد حسن العلوى استناداً إلى ما كتبه العزاوى فى (*تاريخ العراق بين احتلالين*) ومصادر أخرى، قائمة طويلة بالحروب والمنازعات التى وقعت بين الطرفين المتنافسين فى

(١) النقاش، شيعه العراق : ٣٣ .

غضون فترات زمنية مختلفة من عهد السلطان مراد إلى عهد نادر شاه وما أسفر عن هذه الحروب من حملات ابادة جماعية.[١]

وهذه الحملات كانت تشنّ في الغالب من قبل الجانب العثماني وبدافع من النزعة التوسعية التي طبعت سياسة السلطان سليم فيما أطلق عليه بالسياسة الشرقية.

ويوما بعد آخر ترسخت دعائم الوجود العثماني في العراق[٢]، وبطبيعة الحال كان الولاة والحكام من السنة، وأصبح الشيعة من ذلك الحين أقلية محكومة يُنظر إليها بعين الريبة على اعتبارها عدواً تقليدياً للحكم العثماني. وبالتالي علّق هذا (العدو) آماله على الجارة إيران!

في هذه الحقبة عُرف التشيع بأنه تيار من الموالاة لإيران، بينما راح ينظر إلى التسنن باعتباره تياراً دينياً أو سياسياً موالياً للدولة العثمانية. مع ذلك، لم تفقد العتبات المقدسة أهميتها كمزارات دينية أو حواضر علمية للشيعة. وبالتأكيد ظل العثمانيون ينظرون إلى الوجود الصفوي نظرة ريبة طوال تلك الفترة والى حين زوال الدولة الصفوية، الأمر الذي انعكس سلباً على حجم التواصل والتأثير للتبادل بين إيران والأماكن المقدسة في العراق. إلاّ ان هذه الأماكن تحولت فيما بعد، وتحديداً أيام حكم نادر شاه وضغوطه على علماء الشيعة ومحاربته

---

(١) العلوي : ٥٥-٥٦ .

(٢) كان المفهوم التاريخي السياسي للعراق ينطبق على المناطق الكائنة الى مائة كيلومتر من شمال بغداد باتجاه الجنوب حتى الوصول الى البصرة . ولكن هذا المفهوم توسع بعد الحرب العالمية الاولى ليشمل كردستان .

للحوزات العلمية فى أصفهان وسائر مدن إيران، إلى مراكز لاجتذاب المهاجرين من علماء إيران وطلاب العلوم الدينية فيها. وعادت النجف وكربلاء مركز استقطاب دينى للطلاب والعلماء الإيرانيين، الأمر الذى شجع على هجرة الكثيرين منهم إلى العراق بقصد اكتساب العلم وزيارة المراقد، فكان هذا عنصراً آخر من عناصر التأثير المتبادل على المستوى المذهبى بين كل من العراق وإيران.

ان التحول الذى طرأ أيام الدولة الصفوية على علاقة مراجع الدين الشيعة بالدولة ومكانتهم لديها أسفر تدريجياً عن انحسار الدور العربى فى الحوزة العلمية لصالح علماء العجم، وذلك بعد نزوح الحوزة العلمية من العراق إلى إيران وأصفهان على وجه التحديد، بفعل التشجيع والاهتمام الذى أبداه الصفويون لمراجع الدين الشيعة.

والحكاية تبدأ مع بدايات الدولة الصفوية، حيث كانت القيادة الدينية للتشيع بيد العلماء العرب رغم وجود علماء إيرانيين فى العراق كالاسترابادیون. واستمر الوضع على هذا المنوال إلى أواسط العهد الصفوى، ولكن ما أن استقر التشيع فى ايران واضطربت الأوضاع الأمنية فى العراق، لقيت الحوزات العلمية فى إيران ازدهاراً ورواجاً واسعاً، وهيمن الإيرانيون على أوضاع الحوزة طلبةً ومراجع وعلماء ومجتهدين. حتى إذا كانت الدولة الصفوية فى آخر أيام سلطانها عاد من الصعب أن تعثر على عالم أو مرجع إلا وهو إيرانى من الأساس أو متحدر من أصول عربية. واستمرت الأوضاع فى الحوزة لصالح الإيرانيين طيلة الحكم

النادرى والزندى ومن ثم القاجارى، وكون الشيعة هم الأكثرية فى إيران، حتّم أن تكون نسبة الطلاب والعلماء الشيعة طاغية على نسب الطوائف الأخرى. ومع ذلك، لم تعدم الحقبة القاجارية وجود علماء عراقيين عرب نذكر منهم: آل بحر العلوم، وآل كاشف الغطاء، وآل راضى، وآل نصّار، وآل المظفر وآخرين.

ولنا أن نتصور إن أصول بعض من هؤلاء تعود فى جذورها البعيدة إلى مدن إيرانية، ولكن إذا كان المعيار هو هذا، فينبغى القول بانسلاخ العراق عن هويته العربية، على اعتبار أن عراق ما قبل الإسلام لم يكن فيه من العرب إلا القليل. ومن الواضح إن العراق شهد تأريخياً موجات هجرة متعددة شكلت الهجرة العربية إليه إحدى مظاهرها الجلية.

هجرة القبائل العربية من الجزيرة العربية إلى العراق

عروبة العراق حقيقة أفرزتها موجات الهجرة المتعددة التى قامت بها قبائل الجزيرة العربية إلى أرض السواد ولمرّات متتالية قبل الإسلام وبعده.

بعض هذه الهجرات حصلت فى قرون سابقة وبعضها فى قرون لاحقة، إلا انه من المؤكد إنها ابتدأت قبل الإسلام حينما كان العراق أو جزء مما يعرف بهذا الاسم اليوم تحت سيطرة الدولة الساسانية بل إن مركز هذه الإمبراطورية كان هناك. مع ذلك فان تواجد القبائل العربية آنذاك مهّد الطريق لظهور دولة عربية هى دولة المناذرة التى اتخذت من الحيرة عاصمة لها وكانت موالية للإمبراطورية الساسانية أو قُل تابعة لنفوذها مع نوع مما نسميه اليوم بالحكم الذاتى.

ولكن مع ظهور الدولة الإسلامية تصاعدت وتيرة الهجرة إلى العراق من

الجزيرة العربية، ومن ثم أصبحت بغداد مركزاً للخلافة العربية الإسلامية لقرون.

في غضون ذلك برزت ظاهرة الأحلاف العشائرية التى تتكون من تحالف والتزامات متقابلة بين عدد من القبائل فى مواجهة تحالفات أخرى، ومن ثم تطورت القضية إلى مستوى مجابهة قوى سياسية وحكومات، كما حصل فى الاحلاف التى شكلتها بعض القبائل العربية لمواجهة سطوة الأتراك العثمانيين فظهرت تحالفات (المنتفق) و(الزبيد) و (الدليم) و(العبيد) و(الخزعل) و(بنى لام) و(البومحمد) و(ربيعة) و(كعب) وغيرهم. وتعود بعض هذه القبائل فى نسبها إلى القحطانيين أو العدنانيين، فيما تشكلت لاحقاً أحلاف جديدة بعد طروّ انقسامات على القديمة منها ما أسفر عن ظهور أسماء جديدة. وكان التشيع صفة ملازمة لبعض هذه القبائل منذ القدم، أما البعض الآخر فقد تشيع فى فترات متأخرة من القرن الثامن عشر الميلادى وحتى القرن العشرين.

القبائل العراقية والتشيّع

ان انتشار التشيع فى جنوب العراق وبين عشائر الجنوب تحديداً يتراوح بين القديم جداً والحديث من ناحية، فان التشيع فى (خوزستان) تشيع قديم تاريخياً ويتصل بالحقبة المشعشعية، كما ان تشيع العشائر العربية فى الحويزة وناحية الجزائر له جذور تاريخية تتصل ببدايات العصر الصفوى. ومن بين القبائل التى تشيعت فى القرن السادس عشر الميلادى بفضل استقرارها بجوار الدولة المشعشعية التى حكمت خوزستان، قبائل بنى سلامة وطيّ. فيما كانت هناك عوامل أخرى وراء تشيع قبائل أخرى فى جنوب العراق بقيت سنية حتى القرن

التاسع عشر الميلادى. ومن بين تلك العوامل تردّد الإيرانيين على العتبات المقدسة فى العراق، وتواجد طلاب العلوم الدينية الذين يفدون من النجف وكربلاء إلى المناطق العشائرية بقصد الدعوة والتبليغ والإرشاد الدينى مضافاً إلى تعلق أبناء العشائر الجنوبية بأهل بيت النبى صلوات الله عليهم أجمعين مما يحدوهم إلى زيارة المراقد الدينية والاحتكاك بمركز نشر ثقافة التشيع.[١]

ولا يوجد فى الحقيقة ما يؤكد بوضوح متى حصل هذا التحول الكبير، بيد ان إسحاق النقاش وعلى ضوء معلومات مستقاة من كتاب (عنوان المجد) يذهب إلى ان هذا التحول حصل فى القرن التاسع عشر، واعتباراً من ذلك الوقت شكل الشيعة الغالبية من سكان العراق.

ويقال أيضا ان هجوم الوهابيين على كربلاء عام ١٢١٦ \ ١٨٠١ جعل علماء الدين العراقيين يهتمون بنشر التشيع بين عشائر الجنوب العراقى لسدّ الطريق لوجه أتباع محمد بن عبد الوهاب القادمين من ناحية نجد ؛ الأمر الذى ساعد على بسط نطاق المذهب الشيعى بين أبناء تلك العشائر.

ان كتاب (*عنوان المجد*) لمؤلفه إبراهيم الحيدرى البغدادى (م ١٨٨٢) يعدّ مصدراً مهماً للغاية يؤرخ لتلك المرحلة من تاريخ التشيع فى العراق. فقد خصّص فصلاً كاملاً من الكتاب للحديث عن عشائر العراق وتصنيفها إلى عشائر سنية وأخرى شيعية. يقول فى هذا الصدد : من بين العشائر التى اعتنقت مذهب (الرافضة) ـ وما أكثرها!- هم ربيعة التى تنقسم إلى عدة بطون ـ يعدّها الكاتب ـ

(١) النقاش : ٤٧ .

ويضيف إن ربيعة التى تقطن الجانب الشرقى من بغداد هم رافضة بينما ربيعة التى تقطن الجانب الغربى هم من السنة.

ومن العشائر العراقية الكبرى بنو تميم الذين تحولوا إلى شيعة منذ ستّين عاماً ـ والكلام للبغدادى ـ وذلك بسبب تردد شياطين الرافضة ! وتتوزع منازلهم ما بين نجد إلى البصرة واليمامة صعوداً إلى الكوفة والنجف، وبعدها تفرقوا فى الآفاق.

كما إن الخزاعل يعتبرون من العشائر التى تشيعت منذ قرابة مائة وخمسين عاماً والخزاعل تصحيف من خزاعة.[1]

[جدير بالذكر ان قبيلة خزاعة من القبائل المعروفة بميولها الشيعية منذ الصدر الأول للإسلام].

والأمر ذاته ينطبق على عشائر (زبيد) وهى كثيرة، وقد تشيعت منذ قرابة ستين عاماً وذلك بسبب الاحتكاك بالرافضة. ومن العشائر الرافضية أيضاً بنو عمير وهم بطن من تميم وكذلك خزرج الأكبر.

ومنهم أيضاً عشائر شمر طوقة، وهم كثيرون أيضاً وينتسبون إلى شمّر المعروفة لكن الأخيرة تنكر عليهم ذلك. [من المحتمل ان يكون لهذا الإنكار دوافع مذهبية]. ومنها أيضا الدوار والدفاقعة، وكذلك عشائر العمارة البو محمد، ولا حصر لهؤلاء، وقد أصبحوا مؤخراً من الرافضة، وجميعهم من قحطان.[2]

ومنهم أيضاً عشائر الهندية بالقرب من البصرة وينتهون إلى قحطان، وبنو لام

---

(١) الحيدرى : ١١٤ .

(٢) المصدر نفسه : ١١٥-١١٦

وعددهم كثير جداً ولهم بطون عديدة ويرجعون إلى طـى، وكانـت منـازلهم فـى المدينة قبل أن يقصدوا العراق.

اما عشائر الديوانية فتشمل آل الأقرع وآل بـدير وعفـج وجليحـة وجبـور، والأخيرون كثر، وكانوا سنة ولكنهم هاجروا إلى الديوانية وصاروا رافـضة وهـم متعصبون في الرفض. ومن عشائر العراق التى اتخذت طريق الرفض منذ أقل من مائة عام عشيرة بنى كعب التى تتميز بكثرة البطون وتقطن المحمرة وتنتسب إلى خزاعة.(١)

ويُعدّ بنو أسد من القبائل المشهورة جداً فى صدر الإسلام وفى تاريخ العراق، وشهرتهم فى التشيع لا تحتاج إلى مزيد بيان، وقد سكنت هذه القبيلة بادئ الأمر حوالى الحلة وواسط إلى الأهواز، وذات يوم، كانت الحلة مركزاً لإمارتهم، وفـى زمان المستنجد بالله العباسى طردوا من الحلة وتفرقوا فى الأرجاء.(٢) وتستوطن هذه القبيلة الآن جنوب العراق فى منطقة الجبـايش، وكـان لهـا دور بـارز فـى أحداث ثورة العشرين.(٣)

استيطان العشائر ورواج التشيّع

ثمة ملاحظة جديرة بالاهتمام فيما يرتبط بالتعرف على الحيـاة الاجتماعيـة والاقتصادية لقبائل جنوب العراق، وهى إن هجرة هؤلاء من نجـد إلـى الـشمال

---

(١) الحيدرى : ١١٧-١١٨ .

(٢) الكامل فى التاريخ ، حوادث السنة الهجرية ٥٥٨ .

(٣) الساعدى : ١٢٨-١٢٩ .

واستيطانهم حول حوض الفرات حوّل أسلوب حياتهم تدريجياً من نمط البدو الرحّل إلى النمط الزراعى المستقر نوعاً ما. ويعتقد النقّاش ان احد أسباب هذا التبدل فى النمط الحياتى هو انهيار النظم القبلية التى كانت تتحكم فى حياة هؤلاء.

إن الاستيطان الدائمى أوجب من خلال ارتباط هؤلاء بالقبائل الشيعية والمراكز الدينية ـ النجف وكربلاء والحلة ـ التعاطى مع نظم جديدة فى الفكر والسلوك تتوجّت باعتناق المذهب الشيعى من قبل هذه العشائر.

ومن العوامل الأخرى التى عملت على ظهور نظام جديد يعتمد على أساس المذهب، هجوم الوهابية على الخزاعل وبقية القبائل. إن هذه الحملات التى انطلقت من نجد نحو العراق وأدّت إلى فرض الحصار على النجف مرتين واستباحة كربلاء عام (١٢١٦هـ \١٨٠١م) استنفرت الكثير من قبائل المنطقة لمواجهة هذه الأعمال العدوانية على قاعدة الدفاع عن المذهب، وعزّز من ذلك الجهود التى بذلها علماء الشيعة لتشجيع القبائل على الانخراط فى أحلاف قبلية دفاعاً عن أنفسهم ومذهبهم.

وفى أواخر القرن التاسع عشر، كانت الحلة تعدّ مركزاً لتبادل البضائع بين العشائر، ولمّا كانت العشائر الأخرى تتردد على هذا المركز التجارى لأغراض التسوق، أدى ذلك بطبيعة الحال إلى تحول هذه المدينة إلى مركز لنشر التشيع فى العراق.

ويروى ايضاً ان الزابية وهم طائفة صغيرة وفدوا العراق بقصد زيارة العتبات

المقدسة، ولكنهم استقروا فى منطقة الهندية الواقعة بين الحلة وكربلاء بسبب إمكانية الزراعة. وظهر من هذه الطائفة أسر علمية بارزة فى النجف الاشرف منهم آل بنت الحجى وهم أسرة علم وأدب وفقاهة.(١) وكان للأسر العلوية حضور مشهود بين العشائر التى سكنت الحويزة احد المراكز الرئيسية للتشيع فى خوزستان، وما زالت انساب هؤلاء محفوظة. ويشار إلى أنه لا وجود على الإطلاق لعشائر سنية عربية فى خوزستان.(٢)

ونقل الخليلى فى كتابه (*هكذا عرفتهم*) ان جماعة من أهل شوشتر قطنوا النجف منذ مئات السنين، وما زالوا يعرفون بهذا الاسم واللقب، ولهم حسينية وموكب عزاء خاص بهم وهم يحافظون على هويتهم إلى اليوم.(٣)

وانسحب الأمر نفسه على كربلاء والنجف مع بداية القرن العشرين فتحولت المدينتان إلى مركزين للتسوق التجارى، ما أدى إلى نشر ثقافة المركزين بين أبناء العشائر التى كانت تتردد عليها، خاصة مع كثرة المساحات الصالحة للزراعة فى ضواحى كربلاء الأمر الذى شجع أبناء العشائر إلى الاستيطان فى ضواحى كربلاء وعلى إطرافها، وكان ذلک ذريعة لنشر التشيع.

ومع تأهيل نهر الهندية فى المنطقة الفاصلة بين الحلة وكربلاء استوطنت عشائر كثيرة فى المنطقة التى تعرف الآن بسدّة الهندية (على أساس رواية

---

(١) دراسات عن عشائر العراق : ص ١٠٢-١٠٣ .

(٢) التاريخ الجغرافى لعرب خوزستان ص ٢٦٢ .

(٣) هكذا عرفتهم : ١\١٤٥ .

مفادها ان امرأة هندية شيعية شيّدت سداً على النهر المذكور) وأصبح هذا منطلقاً لنشر ثقافة التشيع فی المنطقة.[١]

والجدير بالملاحظة أيضاً ان التشيع ينتشر جغرافيـاً وسـكانياً فـی المنـاطق الحضرية وليس له نفس التأثير والانتشار بين البدو الرحّل وسكان البادية.

وان الثورات والاضطرابات التی شهدها القرن التاسع عشر ضد العثمـانيين أو شيوخ العشائر والإقطاعيين بسبب فرض ضرائب وأتاوات باهظة، سحبت علمـاء الدين إلى مسرح الحياة السياسية والاجتماعية كوساطة لحلّ الأزمة الأمر الـذی زاد من نفوذهم على أبناء العشائر.[٢]

يضاف إلى ذلک أن مواطن استقرار عدد كبير من العـشائر العراقيـة صـارت سبباً لتشيّعهم بفضل التواصل والاحتكاک مع الزوار الإيرانيين.[٣] ويقال فی هـذا السياق ان العديد من القبائل النازحـة مـن الحـويزة إلـی العمـارة وغيرهـا مـن المناطق الواقعة فی طريق كربلاء، إنهم أقوام من الشيعة وفدوا الى زيارة المراقـد المقدسة واستوطنوا فی المناطق الصالحة للزراعة جنوب العراق أو ارتبطـوا مـع العشائر التی تقطن هذه المناطق بعلاقات اقتصادية أو اجتماعية.[٤]

وهناک أيضاً شيعة البحرين الذين هاجروا إلى العـراق أوائـل القـرن الثالـث عشر واستوطنوا فيه لأغراض الزراعة، ومن هؤلاء آل (أبو طبيخ) مـن الـسادات

(١) المصدر نفسه : ٥٥-٥٦.
(٢) المصدر نفسه : ٦٠.
(٣) المصدر نفسه : ٧٦.
(٤) المصدر نفسه : ١٠٤.

العلويين، حيث هاجر إلى العراق من الإحساء الأخوان سيد مهدى وسيد هادى ووفدوا عام ١٢١٤ على شيخ الخزاعل وأقاموا عنده وتكونت من سلالتهم عشيرة كبيرة.[١]

وفى أواخر القرن التاسع عشر حاولت الدولة العثمانية كبح جماح الدعوة إلى التشيع، وذلك عبر إرسال علماء دين يدعون الى التسنن، إلا ان نزعة السلطان عبد الحميد للتوحيد بين المسلمين أسفرت عن إعطاء الشيعة هامشاً من الحرية فى إقامة الطقوس المذهبية ؛ الأمر الذى ساعد على انتشار الفكر الشيعى. ولكن بدايات القرن العشرين شهدت مساعى جمة من قبل العثمانيين للحدّ من النفوذ الشيعى بين القبائل.[٢]

ولعل انتقال الميرزا الشيرازى إلى سامراء وإقامته هناك قد حفزت علماء السنة على تكثيف جهودهم للحد من ظاهرة التشيع، وقد نجحوا إلى حدّ ما فى ذلك.

وثمة تقرير حول العشائر التى كانت شيعية مع بداية القرن العشرين أو التى فيها سنة وشيعة، وكما يلى :

عشائر المنتفق، وكانت شيعية ما عدا بنى حميد، وعشيرة فداغة فى الكاظمية منقسمة بين الشيعة والسنة، وكذلك الأمر حيال بنى سعيد من منفع وزوبع من شمّر والذين كانوا يقطنون فى سوق الشيوخ والكاظمية... غالبية بنى تميم من

---

(١) المصدر نفسه : ١٤٣ .

(٢) النقاش : ٦٩ .

الشيعة بينما قسم من بنى عجيل والعزة بقوا سنّة حتى أوائل القرن العشرين. [البعض من هؤلاء ما زالوا سنة الى يومنا هذا ويقطنون ما بين بعقوبة والخالص].

جبور الفرات شيعة وجبور دجلة سنة، البو محمد هم من الشيعة قاطبة باستثناء بعض الشواذ. عشيرة المحيسن وهم فرع من كعب يسكنون أطراف شط العرب إلى الجنوب من البصرة، كلّهم تقريباً شيعة ما عدا آل بنى غنيم.

عشائر ربيعة شيعة على العموم باستثناء فرع الكوام الكبير الذين يتوزعون ما بين الكوت، العمارة والكاظمية. وعلى هذا المنوال انقسمت عشائر شمّر ودليم طائفياً ؛ شمّر جربة الذين قطنوا العراق أواخر القرن الثامن عشر ما بين دجلة والفرات استمروا على المذهب السنى، اما شمر طوقة الذين استوطنوا بالقرب من كربلاء أوائل القرن نفسه فقد تشيّعوا جميعاً. أما الدليم فالقسم الأعظم منهم والذين سكنوا شمالي بغداد فما زالوا سنة، بينما تحول آل فتلة منهم إلى المذهب الشيعى بعد أن اختاروا منطقة الهندية مأوى لهم.(١)

وينبغي التوقف كثيراً أمام عبارات : (ما زالوا سنة) و (بقوا على المذهب السنّى) لما تستبطنه من زعم بأن الجميع كانوا سنة فى الأصل، وهو مما لا دليل عليه.

جدير بالذكر ان ربيعة واحدة من أهم القبائل الشيعية التى نزحت من النجف صوب جنوب العراق، وكانت الزعامة فيها لمحمد الأمير وهو شخصية ذات نفوذ كبير. ومن مظاهر تشيع هذه القبيلة هو إقامة المضائف على طول الطريق إلى

---

(١) النقاش : ٧١.

العتبات المقدسة لتقديم الخدمة للزوار وفى هذا المجال قصص تروى.[(١)]

التواصل المذهبي بين جنوب ايران وجنوب العراق

لنعد الى الوراء قليلاً كي نتعرف على احد الأسباب الرئيسية لانتشار التشيع فى جنوب العراق. فى البدء يجب أن ندرك أن التشيع المنتشر بين العشائر العربية فى جنوب إيران (خوزستان) لا ربط له بتشيع المناطق المركزية وسط إيران والذى يمتد فى جذوره التاريخية إلى ما قبل الدولة الصفوية بقرون.

كما لا ربط لهذا التشيع بالتشيع الصفوى، إذ مع سيطرة إسماعيل شاه الصفوى على مقاليد الحكم فى ايران، كان قد مرّ وقت طويل على استقرار الدولة المشعشعية وحكمها المناطق الواقعة جنوبى العراق وايران، وهو حكم ذو طابع شيعى بلغ فى بعض حالاته حد الغلوّ. وكان قادة الدولة المشعشعية من أولاد السيد محمد فلاح (تلميذ ابن فهد الحلى ـ م٨٤١). وقد توفى السيد محمد سنة ٨٧٠، وأقام ابنه محسن دولة قوية من بعده، وواصل الحكم من بعده ابنه فلاح بن محسن الذى حافظ على كيان دولة أبيه فى ظلّ الحكم الصفوى. وقد استقطبت هذه الدولة الكثير من العشائر العربية فى الحويزة وضواحيها. ولكن الشاه إسماعيل الصفوى هاجم خوزستان واخضع دولة المشعشعية لنفوذه بدعوى غلوّ هؤلاء. ولكن الشيء المؤكد فى هذا السياق أن الكثير من قبائل جنوب إيران كانوا شيعة منذ ذلك الحين.

وتعدّ (كعب) من القبائل الشيعية المقتدرة فى خوزستان وحكم شيوخها

---

(١) سمامي : ٨٣.

مقاطعات من خوزستان وقتئذ. وهناك أيضا آل كثير وهم من العشائر المهمة التى قطنت قريباً من دزفول وشوشتر، وبنو طرف الذين استوطنوا حوض ميشان[١] بعد أن كانوا يعيشون حوالى البصرة، ومن ثم هاجروا الى خوزستان بعد ظهور الدولة المشعشعية فيها وسكنوا فى أطراف الخفاجية.[٢]

وتدريجياً، انتقلت الكثير من القبائل الشيعية فى خوزستان الى العراق حاملين معهم التشيع، وعكس ذلك حصل أيضاً حيث هاجرت الكثير من عشائر المنتفق من جنوب العراق الى خوزستان. وهناك هجرات عربية كثيرة حصلت بين هذه المناطق ساهمت فى نشر التشيع فقد هاجر بعض أهالى البحرين والإحساء الى خوزستان ويعرفون اليوم باسم (البحارنة) و(الحساوية). وهناك أيضا بنو سالة وهم فرع من خزاعة سكنوا العمارة أوائل القرن الثالث عشر الهجرى، وقد تحالفت هذه القبيلة فى الماضى مع المشعشعية وما زال قسم كبير منهم يقطن فى خوزستان.[٣]

البصرة مركز رئيس للتشيع في العراق

تاريخياً، دشنّت البصرة ميولها المذهبية فى سنة ٣٦ للهجرة فكانت عثمانية الهوى.ولكن تزامناً مع ذلك ظهر فيها توجه شيعى محدود ولكنه قويّ وفاعل.[٤]

وقد خرِّبت البصرة مرات عديدة بفعل الحملات المتعددة عليها من قبل

---

(١) انظر فهرس العشائر العربية فى خوزستان من كتاب (التاريخ الجغرافى لعرب خوزستان) ، ص ١٠٨- ٢٤٨ . وايضاً : القبائل والعشائر العربية في خوزستان ، يوسف بني طرف ، الفصل الاول .

(٢) التاريخ الجغرافى لعرب خوزستان ، ص ١٧٩ .

(٣) المصدر نفسه : ص ١٦٣ .

(٤) النصرة لشيعة البصرة ، نزار المنصورى ، ص ٥٤٠ .

الخوارج ومن بعدهم القرامطة. ولم تر وجه العمران إلا بحدود القرنين الثامن والتاسع عشر الميلاديين. وقد احتلت البصرة من قبل القوات العثمانية عام ١٠٨٧ هـ \ ١٦٧٦ م.

وصف الحيدرى (ق ١٩) البصرة بقوله : أهالى البصرة والجنوب من أهل السنة والجماعة لكن أهل شط العرب من الرافضة. وأضاف أن الرفض صفة عارضة على اهل البصرة ومنشؤها ـ حسب زعمه ـ من بلاد العجم والبحرين وبعض سكان البادية القاطنين على ضفاف شط العرب، وما عدا هؤلاء فان كل بصرى أصلى فهو سنّى. [يلاحظ ان الحيدرى كاتب سنى متعصب]. ويعزو الحيدرى تشيع أهالى شط العرب وما يليه من نواحى البصرة إلى عدم حضور العلماء السنة فى تلك الأوساط. ولا ينسى التصريح بأن أهالى قرية الزبير من السنة الحنابلة.[1]

غير ان الدراسات الميدانية اللاحقة تفيد أن الزبير نصفها من السنة والنصف الآخر منها شيعة. إن الحضور التاريخى للشيعة فى البصرة خاصة بين بنى عبد القيس أمر لا غبار عليه.

أما عشائر المنتفق التى نوّهنا آنفاً بكثرتها فهى تتوزع على مناطق الاهوار المحيطة بالبصرة، والكثيرون منهم تشيعوا على أثر احتكاكهم وجوارهم للمشعشعة.

---

(١) الحيدرى : ١٦١-١٦٢ .

مركزية العتبات بالنسبة للشيعة (ق ١٨)

الدكتور علي الوردي لم يجانب الصواب حين قدّر بان هيمنة نظام الاجتهاد على الحوزات الشيعية فرض نفسه كواقع، بُعيد حسم النزاع بين الاصوليين والاخباريين. وكان الشيخ جعفر كاشف الغطاء ـ أحد مراجع الدين العرب ـ من ابرز الشخصيات التي وقفت بحزم بوجه التوجه الاخبارى، وألّف فى هذا السياق كتاب (الحق المبين فى تصويب المجتهدين وتخطئة الاخباريين). وله ايضاً كتاب (كشف الغطاء عن عيوب الميرزا محمد الاخبارى عدوّ العلماء) والأخير لقى حتفه مع أحد أبنائه فى غضون الاضطرابات التى وقعت فى الكاظمية بعد صدور الفتوى بقتله عام ١٢٣٢هـ\١٨١٧ م. ومنذ ذلک الحين لم ترفع للإخباريين راية.[١]

ويضيف الوردى فى كتابه ان النجف بدأت تتطور اعتباراً من عام ١٢٣٦هـ\١٨٢١ م، ومردّ ذلک إلى تحسن العلاقات بين إيران والعراق وكثرة تردد العلماء والزوار. لقد ارتقت النجف فى مكانتها العلمية بحيث أبدى الإيرانيون ميلاً كبيراً للسفر إليها لغرض الدراسة.

وكان تعداد طلبة النجف آنذاک (ق١٣هـ\١٩ م) يربو على عشرة آلاف فيهم الإيرانيون والأتراک والهنود، لكن نسبة الإيرانيين كانت هى الغالبة بالطبع.[٢]

ونظراً لانتشار التشيع فى جنوبى العراق ووسطه ونزوح الشيعة صوب الشمال

---

(١) الوردى : ٧٨\٣ .

(٢) المصدر نفسه : ٧٩\٣ .

واستيطانهم أحيانا حوالى بغداد، ازدادت النجف قدرة ونفوذاً خاصة مع تحول المركزية الشيعية العلمية من إيران الى العراق خلال الحقبة الافشارية وأوائل العهد القاجارى. وقد ترسخت هذه المكانة للنجف يوماً بعد آخر من منتصف القرن التاسع عشر لتتجلى الى العيان فى احداث تحريم التنباک والحركة الدستورية المشروطة.

والملاحظة الجديرة بالعناية هنا ان مراجع الدين الشيعة كانوا فى تلك الحقبة خارج نطاق الدولة الايرانية، لذا لم يكونوا خاضعين لنفوذ وسطوة الحكام القاجاريين كما ان الاختلاف المذهبى حال فى الوقت ذاته دون تبعية علماء الشيعة فى العتبات لسلطة الباب العالى فى الآستانة.

وهذه الوضعية اكسبتهم مكانة فريدة من نوعها وحوّلتهم إلى مركز قوة مهيب الجانب خاصة مع غياب المنافس. وقد تجذرت العلاقة بين مراجع الدين الشيعة وبين أتباعهم مع تطور الفكر الاجتهادى وشيوع ظاهرة التقليد.

عدم نجاح الشيعة في التوسع شمالاً

عندما يجرى الحديث عن العتبات المقدسة فالمقصود مدن أربع هى : النجف وكربلاء والكاظمية وسامراء. ولم يكن الشيعة يسيطرون الا على المدن الثلاث الأولى، أما سامراء الواقعة على الطريق الواصل بين بغداد وتكريت فكانت بأيدى السنّة. وقد استطاع التشيع أن يصل شمالاً الى مدينة بلد الواقعة فى منتصف الطريق الى سامراء التى لم يتمكن الشيعة من بسط نفوذهم فيها رغم احتوائها على مرقدى الإمامين الهادى والعسكرى عليهما السلام. ولهذا لم تكن سامراء

في وقت من الأوقات ملاذاً آمناً للزوار الشيعة خصوصاً الإيـرانيين مـنهم. وفـى هذا السياق تعدّ بلدة (بلد) أهم مدينة مأهولة شيعياً فى تلـك المنطقـة، وجميـع سكانها من الشيعة، وهم اليوم (٢٠٠٧ م) محاصرون من قبل السنة.

وخلال إقامته فى سامراء، مهّد الميرزا الشيرازى لحضور شـيعى فـى تلـك البلدة، وذلك عبر تشييد المدارس والأسواق والمـساجد والحمامـات والتعامـل برفق مع أهل سامراء، ونجح فى التقـرب الـيهم. غيـر ان علمـاء الـسنة ثـارت حفيظتهم من ذلك، وجيّشوا الجيوش لأجل الحفاظ على سـامراء سـنيّة، وكـان على رأس هؤلاء محمد سعيد النقشبندى الذى بادر إلى الاسـتقرار فـى سـامراء وشيّد فيها مدرسة لاستقطاب السنة، واستمر النزاع والتجاذب بين الطرفين فتـرة من الزمن، الا ان المدينـة بقيـت تحـت سـيطرة الـسنة.[١] وبعـد وفـاة الميـرزا الشيرازى، ذهب النقشبندى إلى الديار المقدسة، ومن هناك قصد اسطنبول للقـاء السلطان عبد الحميد الذى حباه بمنحة مالية من خزينـة الـسلطان لغـرض بنـاء وتأسيس مدرسة كبرى للـسنة فـى سـامراء. ومنـذ ذلـك الحـين بـات الـزوار الإيرانيون عرضة للاعتداء من قبل سكان المدينة.[٢]

فى غضون ذلك، كان هنالك عدد ضئيل من الطـلاب فـى مدرسـة الميـرزا الشيرازى، وواصلت الحوزة تقديم الدعم المالى لهم رغم تعطّـل الدراسـة فيهـا، ولكن بغية تشجيعهم على عدم ترك سامراء. وخلال شهر رمضان وحيـث تبقـى

---

(١) الوردى : ٣\٨٩-٩٢ .

(٢) الوردى : ٣\٩٤ .

أبواب المراقد فى النجف وكربلاء مفتوحة طوال الليل، كان لفيف من طلبة النجف يقصدون سامراء لأجل إحياء ليالى رمضان فى مرقد الإمامين العسكريين عليهما السلام ويحرصون على إبقاء أبواب المرقد مفتوحة خلال الليل.

وثائق عثمانية تتضمن محاربة التشيع

إن النزاع الصفوى ـ العثمانى على المسرح العراقى لم يقتصر على البعد السياسى، وإنما كانت له جذور مذهبية. ومعروف ان العثمانيين كانوا منهمكين بمحاربة التشيع فى الأناضول منذ القرن السادس عشر الميلادى وقبل ان يكونوا بصدد مواجهة نفوذ التشيع فى العراق. والواقع انهم أعلنوا المعركة ضد التشيع من هناک، حتى إذا ما تمكنوا من قمع الميول الشيعية فى تلک المناطق، عادوا ليركزوا جهدهم على الوقوف بوجه المدّ الشيعى فى العراق. بيد أنهم فى هذه المرحلة باتوا منهكى القوى وتراجعت قدرتهم على المناورة سياسياً. ومع انشغالهم بدرء المشاكل والاخطار على الجبهة الاوربية لم يكونوا ميّالين إلى فتح جبهة أخرى للصراع على الجانب الشرقى وخلق مشاكل مع القاجاريين. من هنا أبدوا مرونة نسبية فى التعاطى مع الأوضاع فى العراق ؛ الأمر الذى خفّف كثيراً من الضغوط على الحوزة فى النجف. وإذا كانت النجف لم تستثمر الأوضاع لصالح نشر التشيع أكثر، فمردّ ذلک إلى تقصير منها فى اداء وظيفتها.

ثمة وثائق فى أرشيف الدولة العثمانية تشير إلى وجود تحذيرات مكررة من خطر انتشار المدّ الشيعى فى العراق أواخر العقد الأخير من القرن الثامن عشر، أى فى فترة حكم السلطان عبد الحميد لثانى. والواقع ان العثمانيين كانوا يعدّون

التشيع فى إيران حائلاً دون وصول الأتراك إلى الموارد البشرية السنية فى الشرق الأقصى.

فى هذه الفترة، فاق العلماء الشيعة فى العراق نظراءهم السنة فى العدد وفى مساحة الولاء والقدرة على التأثير فى أوساط المدن والريف والبادية. وفى تقرير مرفوع إلى الآستانة من قبل القنصل العثمانى فى آذربيجان الإيرانية إشارة إلى ان الشيعة يشكلون نسبة ٤٠٪ من سكان العراق وقد حملت تلك المذكرة توصية باستعمال اللين فى معالجة الموقف واقترح إرسال مدرسين سنة من اسطنبول إلى العراق ومحاولة التأثير على الأوضاع فيه من خلال المدارس وأساليب التربية والتعليم وتفادى اللجوء إلى سيف السلطان سليم.[(١)]

وفى مذكرة أخرى بهذا الصدد ورد التأكيد على استقلالية علماء الشيعة فى العتبات المقدسة، وجاء فى المذكرة : ان المجتهدين الشيعة لا يتطلعون إلى مناصب رسمية ولا يخشون بالتالى من العزل أو الإقالة، ومن ثم فأن السيطرة عليهم مهمة صعبة خاصة مع ما يتمتعون به من نفوذ لدى عامة الناس، حيث يرون فيهم نواباً للإمام ما يمنحهم مكانة عظيمة تفوق مكانة السلطان آلاف المرات... إنهم بكلمة واحدة قادرون بمحض الإشارة على تحريض الناس ضد السلطان وفى غضون أربع وعشرين ساعة فقط !

فى تلك الأثناء، كانت الحكومات الإيرانية تتمتع بنفوذ كبير على الأوضاع فى العراق نظراً لقوة التواجد الإيرانى فى العراق على صعيد الحوزة أو

---

(١) دربنكيل : ١٨-١٩ .

المجتمع عموماً.

وهذا هو بالضبط ما كان يشكّل مصدر قلق كبير بالنسبة للعثمانيين، ما دعاهم إلى إتباع سياسة خاصة تعتمد ضبط أعداد الزائرين والتضييق على المجتهدين الشيعة والدعوة للمذهب السنى والتظاهر باحترام العتبات المقدسة كمؤشر على احترام الدولة العثمانية لعقائد الشيعة كل ذلك من اجل الحدّ من النفوذ الإيرانى على الساحة العراقية.(١)

ان حادثة تحريم التنباك عام ١٣٠٩ هـ\١٨٩٢ م لم تزلزل العرش الإيرانى فحسب، بل أثارت الرعب فى قلوب السلاطين الأتراك أيضاً. وبعد تلك الواقعة كتب سليمان حسين باشا أحد الأتراك المنفيين إلى بغداد شارحاً أبعاد الحدث ودور الميرزا حسن الشيرازى فيه، قال : نظراً لأن المجتهدين الشيعة يعدّون جميع الحكومات غاصبة، فلابد من العمل على الحدّ من نفوذهم من قبل الدولة، فهؤلاء عقبة كأداء بوجه الترقى والتقدم، وهم بالتالى خطر جسيم... وتجدر الإشارة إلى ما فى بعض التقارير من ان العتبات تحولت عملياً إلى مدن ايرانية بفعل ما يتدفق عليها من أموال إيرانية.(٢) ومن شأن هذه الأموال أن تجعل من الشيعة أغنياء فى مقابل السنة الفقراء، الأمر الذى يتجلى فى أوضح صورة فى الحوزات العلمية الدينية حيث ان الشيعية منها تكاد تكون مكتفية ذاتياً فى مقابل عوز كبير تعانى منه الحوزات السنية.(٣)

وهذا الأمر كان سبباً فى ازدهار التجارة بين الشيعة وظهور جيل من التجار

(١) دربنكيل : ٢٠ – ٢١ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٣-٢٤ .

(٣) المصدر نفسه : ٢٦ .

الشيعة في بغداد والأماكن المقدسة.

مع ذلك، فان الدولة العثمانية أبدت اهتماماً خاصاً بعمارة العتبات المقدسة على اعتبار ان الموضوع يرتبط بحيثية الدولة حسب ما نوّهت به تقارير مختلفة صادرة من وإلى الآستانة بهذا الخصوص.[1] وهذا التوجه ظهر جلياً بعد إحساس الدولة العثمانية بالحاجة إلى دعم علماء الشيعة في توجّه السلطان لتوحيد المسلمين قبال الخطر المتمثّل بالتحديات الأوروبية.

والحقيقة، ان سياسة العثمانيين حيال العتبات المقدسة حملت في هذه الفترة الكثير من التناقضات فرضها تقاطع المصالح، فهي من ناحية تخشى من توسع المدّ الشيعي، ومن ناحية أخرى تحتاج إلى علماء الشيعة وفتاواهم الحاثّة على وحدة المسلمين.[2]

وفي واحدة من المفارقات الغريبة، لابدّ من الإشارة هنا إلى إن الكثير من الإيرانيين تمكنوا من الهجرة من إيران إلى اسطنبول، إما مباشرة أو عن طريق المرور بالعراق. وقد ازداد عدد هؤلاء المهاجرين مع أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين إلى درجة أنهم تمكنوا من إقامة المراسيم المذهبية الشيعية في عاصمة الدولة العثمانية، وببهاء لم يسبق له مثيل.[3]

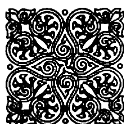
---

(١) المصدر نفسه : ٢٨-٢٩ .

(٢) النقاش : ١٠٦ .

(٣) دربنكيل : ٣٠ .

الفصل الثاني



الجغرافية البشرية والسياسية للشيعة في العراق

طبقاً للإحصائيات المنشورة بشأن التوزيع الديموغرافى المذهبى فى العراق، فإن العرب الشيعة يشكلون الغالبية من أبناء المجتمع العراقى. ويتحدث الكاتب حنّا بطاطو بهذا الصدد مقسماً الجغرافية الدينية والمذهبية فى العراق إلى مناطق ثلاث :

المنطقة الأولى : وهى أكثر المناطق المأهولة بالسكان ويقطنها الشيعة، وتضمّ المحافظات الواقعة إلى الجنوب من بغداد وهى من الناحية العرفية تعدّ منطقة عربية، باستثناء اقلية إيرانية متواجدة فى البصرة والنجف وكربلاء. ولا يشكل الشيعة ١٠٠٪ من سكانها لوجود مناطق صغيرة تتواجد فيها أقلية سنية، كما إن مدينة الزبير والقسم الواقع جنوب غرب البصرة مأهول بالسنة.

المنطقة الثانية : وادى الفرات إلى الشمال من بغداد، يقطنه العرب، ووادى دجلة الممتد من بغداد إلى الموصل ساكنيه من السنة، مع أقليات شيعية فى بلد والدجيل وسامراء. وفى أطراف هذه المنطقة والمنطقة الثالثة ـ الآتى شرحها ـ ينتشر التركمان على امتداد طريق البريد القديم

الواصل بين بغداد والموصل واسطنبول.[١]

ويتوزع التركمان الشيعة على مدينـة تلعفـر ـ قـرب الموصـل ـ وداقـوق وطوزخرماتو وقرة تبه، فيما يتواجد الاكراد السنة في التـون كـوبري وكركـوك وكفري، وجزء من اهالي كركوك من الشيعة التركمان.

المنطقة الثالثة : وهي تشمل الهلال الجبلـي الكـردي، وهـي منطقـة خـصبة ترويها امطار شمال العراق وشماله الشرقي. وهي منطقة سنية أيضاً، مع فـارق ان هذه المناطق مأهولة منذ العهد الملكي بأتباع الأديان الباطنيـة والـصوفية. وفـي

(١) التركمان وأغلبهم شيعة عانوا الكثير من قمع السلطة البعثية . ويقال ان تشيّعهم يعود إلى زمان اشاه روح حفيد تيمور . أيام سيطرة دولة الخروف الأسود بزعامة جهانشاه على بغداد وضواحيها الشمالية (١٤٤٧ م) وتوسّعها باتجاه الجنوب العراقي . بعد ذلك ساهم الشاه اسماعيل في نشر التشيع بين صفوف التركمان ، حيث شجع الكثير من الدعاة إلى استيطان تلك المناطق واشاعة المذهب الشيعي فيها . وظهرت فرق كثيرة بين الشيعة التركمان مثل (العلوية والبكتاشية والصارالية) . وقد هاجر بعض الشيعة التركمان إلى النجف وكربلاء بعد احتلال العراق من قبل الانكليز ، مما أدى إلى إقامة جسور تواصل بين علماء الشيعة ومقر تواجد التركمان في كركوك وضواحيها . ولقد حاول صدام اجتذاب التركمان ، فمنحهم حق تشكيل الجمعيات واصدار المطبوعات ، ولكن لم تمض فترة طويلة حتى انقلب عليهم بعد أن رأى انه لم ينجح في كسب رضاهم ، فأمر باغلاق المدارس وتسبب المعلمين إلى مناطق بعيدة عن محل سكناهم في كركوك . كما قام بطرد الاكراد والتركمان من شركات النفط وتفيهم إلى جنوب العراق . الأمر الذي أوجد نوعاً من التحالف بين الكرد والتركمان . وبعد الانتفاضة الشعبانية عام ١٩٩١ م داهم الجيش مناطق التركمان ما اضطر بعض التركمان إلى الهرب صوب الحدود التركية خوفاً من انتقام البعثيين . وفي وقت من الأوقات سلّط البعثيون جام غضبهم على الشيعة التركمان واتهموهم بالانتماء لحزب الدعوة الإسلامية واعدموا الكثير منهم . والى الآن يحتفظ التركمان السنة والشيعة بعلاقات طبيعية تجمع الفريقين . وهذا الأمر ينطبق على التركمان السنة في كركوك والشيعة في منطقة (تسعين) وعلى جميع التركمان المنتشرين من خانقين إلى تلعفر التي يتمركز فيها الشيعة ويحيط بها السنة . وهناك اعداد غفيرة من التركمان الشيعة في اطراف الموصل وداقوق وطوزخرماتو وقرة تبة وخانقين ومندلي . ولتفاصيل أكثر في هذا الصدد راجع الموقع الالكتروني : (www.alturkmani.com) .

هذا ، ومع كتابة هذه الأوراق طالت الفتنة الطائفية التركمان عندما بادر التركمان السنة خارج تلعفر إلى قتل أقرانهم الشيعة ضمن حملات ابادة وحشية .

القرن التاسع عشر حصل نزاع بين أبناء هذه المنطقة وبين أهالى بغداد من أتباع الشيخ عبد القادر الكيلانى. وعلى أى حال، فان المتصوفة العرب لم يكن لهم من الفعالية والنشاط ما لإقرانهم الكرد إبان العهد الملكى، ما عدا سامراء، ولكن هذا النوع من النشاط للصوفية العرب تنامى فيما بعد العهد الملكى.

هذه المناطق الدينية الثلاث تتداخل فيما بينها فى العاصمة بغداد. ففى محلة (عقد الأكراد) فى بغداد يتواجد الكرد الشيعة الذين يصطلح عليهم محلياً باسم الأكراد الفيلية.[(١)] وفى جميع المناطق الثلاث المشار إليها تعثر على مواطنين غير مسلمين يشكلون بمجموعهم نسبة ٣٪ من مجموع نفوس العراق. وكانت نسبتهم ضعف ذلك قبل ان يغادر اليهود العراق إلى فلسطين المحتلة منذ العالم ١٩٤٧.[(٢)]

ويتعرض بطاطو لبحث جذور التشيع فى المنطقة التى يشكّل الشيعة فيها الآن الغالبية المطلقة فيقول ان ابا بكر الخوارزمى (م٩٩٣ أو ١٠٠٢ م) وضمن أشارته إلى مرقدى الإمام على والإمام الحسين عليهما السلام يعتبر التشيّع شأناً عراقياً.

---

(١) بطاطو : يقال ان خمسين بالمائة من سكان ديالى هم من الشيعة عرباً كانوا ام كرداً ام تركمان . علماً ان الاكراد الفيلية كلهم من الشيعة . وكانوا يتمركزون فى محافظة ديالى، ولكنهم تبعثروا على المحافظات المجاورة ومنها بغداد جراء السياسات التعسفية بحقهم . وهؤلاء الاكراد هم فروع من العشائر الكردية الموجودة فى ايلام وكرمانشاه ، ولا تربطهم باكراد شمال العراق صلة تذكر وهم يرفضون الانتماء اليهم سياسياً . والعدد التقريبى لهم حوالى مليون نسمة . والكثير منهم ايام نظام صدام وخوفاً من غضب السلطة ادعى العروبة أو أخفى تشيعه .

(٢) بطاطو : ١\٥٧-٥٩ .

ويقول ان ما كان يطلق عليه حينها اسم (العراق) باستثناء بغداد والمناطق الواقعة إلى الشمال منها هو الآن موطن الشيعة فى هذا البلد. وقلب هذه المنطقة هو حوض الفرات الأوسط. ولقد ساهمت دولة آل بويه ـ وهم أسرة فارسية شيعية ـ علوّ شأن آل مزيد من بنى أسد وهم شيعة يقطنون البصرة. ولا ننسى دور الأسرة المشعشعية التى سيطرت على الشريط الحدودى من تخوم بغداد إلى الخليج أواسط القرن الخامس عشر الميلادى. (وكان الجنوب العراقى فى أيام حكمهم شيعياً بمجمله ما عدا البصرة طبعاً). كما ان التغييرات التى طرأت على مسار نهرى دجلة والفرات غيّرت شكل المنطقة، فاندثرت مدن مثل واسط والمدائن، وظهرت أخرى مثل العمارة والناصرية. وهناك عشائر قديمة انقرضت أو أفل نجمها، فيما برزت عشائر جديدة قدمت من شبه جزيرة العرب واستقرّت فى الأراضى السهلية لدجلة والفرات. هذه التحولات الديموغرافية أدت إلى خلق أوضاع جديدة كان أبرزها اتشاح المنطقة بوشاح التشيع.

ويضيف بطاطو عوامل أخرى يرى أنها ساهمت فى تنامى المدّ الشيعى فى هذه المنطقة، من بينها :

ـ وجود علماء الشيعة فى النجف وكربلاء.

ـ مركزية النجف والحلة بالنسبة للتشيع.

ـ العلاقات التجارية والمذهبية بين شيعة العراق والشيعة فى بلاد فارس.

أضف إلى ذلك، ان الكثير من العشائر التى تستوطن المنطقة لا تبدى مقاومة تذكر حيال ما تجده من آداب وتقاليد وشعائر دينية. ولهذا نجد أن بعض هذه

العشائر انقسمت إلى شطرين : شطر سنى وآخر شيعى. ومن هذه العشائر عشيرة شمّر التى تنقسم إلى قسمين : شمّر جربة وهم سنة، وشمّر طوقة وهم شيعة.

كما أن آل فتلة الذين شكّلوا عماد ثورة العشرين هم فرع شيعى من قبيلة الدليم السنية ويقطنون الفرات الأوسط. نفس الأمر ينسحب على الجبور، فالذين يقطنون منهم أطراف الحلة ونهر الفرات من الشيعة، أما الذين يتواجدون فى منطقة الشرقاط جنوب غرب الموصل فهم جيور سنّة.

إن تردد رجال الدين على هذه المناطق أسهم بلا شك فى بسط مساحة التشيع.

ويواصل بطاطو تحليل أسباب تنامى التشيع فى العراق فى ظلّ نظام الحكم العثمانى المناوئ أصلاً للشيعة، فيذكّر بحقيقة ان أوامر السلطة العثمانية حينها لم تكن مؤثرة إلا فى حدود المدن الكبيرة التى يتواجد فيها مندوبون عن الدولة العثمانية، أما المدن الصغيرة والقرى والأرياف فتبقى بعيدة عن التأثر بهذه المقررات والقوانين. ناهيك عن ان الدولة العثمانية لم تكن تمارس ضغطاً كبيرا على الشيعة أو تمنعهم من أداء طقوسهم الدينية والمذهبية.[١]

عدد الشيعة حسب إحصاء عام ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ م

عام ١٩٢٠ اجرى فى العراق إحصاء سكانى عام شمل جميع مناطق العراق

---

(١) بطاطو : ١١\٦١ .

باستثناء السليمانية التى لم تكن تابعيتها للعراق محسوسة حتى ذلك الحين. وقد جاءت نتائج الإحصاء على النحو الآتى بحسب المذكرة التى رفعتها القنصلية الإيرانية فى البصرة حينها، وجاء فيها ما يلى :

المحافظة	التعداد الكلى	عدد الشيعة
بغداد ـ المركز	٢٥٠٠٠٠	٥٤٠٠٠
بغداد ـ المحافظة	٣٣٠٧٩٠	٦٨٢١٥
الكوت	١٠٧٧٩٧	٩٨٨١٢
الدليم	٢٥٠٠٠٠	٢٠٠
ديالى	١٠٤٠٣٦	٤٦٠٩٧
البصرة	١٦٥٦٠٠	١٣٠٠٠٠
الحلة	١٧٣٠٠٠	١٥٥٨٩٧
الديوانية	٢٠٤٥٠٠	١٩٢٣٠٠
المنتفك	٣٢٠٠٠٠	٣٠٦٠٠٠
العمارة	٣٠٠٠٠٠	٢٨٤٧٠٠
الموصل	٣٥٠٣٧٨	١٧١٨٠
كركوك	٩٢٠٠٠	٥٠٠٠
اربيل	١٠٦٠٠٠	ـــــــ
كربلاء	١٩٠٠٠٠	١٨٩٠٠٠

المجموع الكلى = ٢٨٤٩٢٨٢ ،[١] الشيعة = ١٠٠٥٠٠٠.

(١) كوهستانى نجاد : ٤٢٧-٤٣٠ .

وطبقاً لما أورده حسن العلوى يمكن اعتماد النسب التالية على ضوة نتائج التعداد السكانى آنف الذكر والذى نظمه الانجليز لجميع مناطق العراق ما عدا السليمانية.

العرب الشيعة : ٥٥٪

العرب السنة : ١٩٪

الكرد السنة : ١٨٪

اليهود والمسيح وباقى الطوائف : ٨٪

لكن هذه النسبة ارتفعت إلى ٥٦٪ فى إحصاء عام ١٩٣٢، حيث بلغ عدد الشيعة ١٦١٢٥٣٣ نسمة من مجموع ٢٨٥٧٠٧٧ نسمة يشكلون كل سكان العراق.[١]

إحصاء عام ١٩٤٧

وقد أفرز هذا الإحصاء الرسمى الذى أجرته الحكومة العراقية، عام ٤٧ النتائج التالية :[٢]

الطوائف	التعداد	النسبة
العرب الشيعة	٢٣٤٤٠٠٠	٥١\٤
العرب السنة	٩٠٠٠٠٠	١٩\٧
الكرد السنة	٨٤٠٠٠٠	١٨\٤

(١) النقاش : ٣٢ .

(٢) بطاطو : ٦٠\١١ .

الطوائف	التعداد	النسبة
الشيعة الايرانيون	٥٢٠٠٠	١\٢
التركمان الشيعة	٤٢٠٠٠	٠\٩
الكرد الشيعة	٣٠٠٠٠	٠\٦
المسيحيون	١٤٩٠٠٠	٣
اليهود	١١٧٠٠٠	٢\٦
اليزيدية والشبك	٣٣٠٠٠	٠\٨
الصابئة	٧٠٠٠	٠\٢

نستنتج من الأرقام والبيانات أعلاه أن نسبة الشيعة ـ عرباً وكرداً وتركمان ـ تبلغ ٥٤\١١٪ من مجموع سكان العراق ؛ ما حدا بالكاتب حسن العلوى إلى القون ان تجاهل شيعة العراق العرب يفضى إلى تراجع نسبة العرب فى هذا البلد إلى اقل من ١٨٪.[1]

ويتطرق العلوى إلى اتجاه قومى عربى سعى منذ عام ١٩٢٠ لإخراج شيعة العراق من دائرة العروبة. والمفارقة ان عدد الإيرانيين المقيمين فى العراق ٥٢٠٠٠ نسمة، فى حال ان الكاظمية وحدها بلغ عدد نفوسها عام ٤٧ م (١١٥\٧٦٠) نسمة، وبالتالى فإن مصادرة الوجود الشيعى فى العراق سوف تنعكس نقاطه سلباً على توجهات القوميين العرب !

ذات يوم، سُئل السفير العراقى فى الصين عيسى سلمان التكريتى حول الأكثرية فى العراق ؛ هل هى للسنة أم للشيعة ؟ فأجاب سلمان بأن العجم فى

(١) العلوى : ٤٥-٤٦ .

العراق أكثر من العرب، ولكن إذا جمع العرب مع الكرد، فان مجموع هاتين الفئتين يتجاوز عدد العجم. فتصدى احد الحاضرين وهو فلسطيني لسؤال السيد السفير إن كان شيعة العراق من العجم، فأجاب : نعم !(١)

ان خطورة هذا التوجه حيال عروبة العراقي دعا بعض القوميين العرب مؤخراً للزعم بأن شيعة العراق نوعان ؛ فمنهم العربي ومنهم غير ذلك !

الجغرافية السياسية لشيعة العراق

بعد تعرّضه للإحصائيات ذات الصلة بالوجود الشيعي في العراق، تناول حنّا بطاطو طبيعة الصلة بين النظام الطائفي والسلطة السياسية وموضوع مالكية الأرض وسهم الطوائف فيها. ويتكلّم بطاطو حول العقد الثاني من القرن العشرين قائلاً :

كان هناك ارتباط وثيق بين الولاء الطائفي والنظام الاجتماعي، على نحو أن أغلبية الملاك المتنفذين في البصرة هم من السنة ما عدا شخصاً واحداً، في حال ان اغلب المزارعين وأصحاب البساتين من الشيعة. والشخص الشيعي الوحيد الذي قلنا انه من الملاك هو شيخ المحمرة وهو صاحب أراض شاسعة.

ان وجوه وأعيان المجتمع البصري كانوا من السنة أيضاً، أما ساكنوها فغالبيتهم شيعة. مع ملاحظة ان رجال الدين الشيعة كانوا يتمتعون بمكانة اجتماعية جيدة.

---

(١) العلوي : ٤٦ .

وفى المدن الجنوبية الأخرى ـ عدا النجف وكربلاء ـ مثّل السلة الأقلية المتفوقة اجتماعياً، واغلبهم من التجار والأثرياء وأصحاب الأراضى والمقاطعات. وكان هؤلاء يهيمنون على مقاليد التجارة فى الأسواق الشيعية الصغيرة، كما إن الأسواق الصحراوية تدار من قبل التجار السنة القادمين من منطقة نجد فى الجزيرة العربية.

فى لواء المنتفق، كان المزارعون قاطبة من الشيعة، فى حال ان الملاک اكثرهم من أبناء عشيرة السعدون السنية. وهكذا الوضع فى الحلة. هزاع من محيمد شيخ المعامرة من فروع زبيد، مالک سنّى وأكثر مزارعيه من الشيعة. أما فى بغداد حيث يتعادل التركيب السكانى بين السنة والشيعة من ناحية العدد، فنجد ان الأسر المتسلطة سنية فى الغالب مع وجود استثناءات.

وفى الجيش يحتكر السنة كل المراتب العسكرية العليا، ما عدا الجنود والمراتب وبعض الضباط الصغار فغالبيتهم المطلقة من عشائر الجنوب.[1]

ان هيمنة السنة على المدن يعود تاريخياً إلى زمن الدولة العثمانية، اما هيمنتهم على الريف، فمردّه إلى سيطرة أهل الإبل على أهل الزراعة !

وينوّه بطاطو إلى ان الاوضاع الاجتماعية فى جنوب العراق شهدت بعض التحسن في الأربعينيات، ويستدلّ على ذلک بأن السنة بدأوا يزوجون بناتهم

(١) بطاطو : ١١\٦٦ . أبرز الأسر البغدادية كانت سنية مثل آل الكيلانى والجميل والسويدى، والحيدرى، والسنوى، والطبقجلى، والشاوى، والشواف، والداود والزهاوى، والجادرجى، والخضيرى، والباججى، والدفترى .

للشيعة، وما كانوا يقدمون على ذلك من قبل.[(١)]

حتى عام ١٩٤٧ م لم تتقلد ولا شخصية شيعية منصب رئاسة الوزراء فى حال ان الأعوام الواقعة بين ١٩٤٧-١٩٥٨ شهدت أربع حكومات يرأسها شيعة.[(٢)] مع ذلك لم يكن للشيعة حضور فاعل فى مراكز صنع القرار، بيد أن اتساع نفوذهم الاقتصادى مهّد لإعطائهم دوراً سياسياً اكبر، وهذا الوضع تبلور أكثر فى الخمسينيات من هذا القرن، بحيث أن الملاك الكبار للأرض فى العراق كان عددهم سبعة عام ١٩٥٨ م ستة منهم شيعة، ومن بين ٤٩ أسرة عراقية مالكة للأرض كانت ثمة (٢٣) أسرة شيعية عربية و (١٤) أسرة سنية عربية، (١١) أسرة كردية وأسرة يهودية واحدة.

وحتى ذلك الوقت كان الشيعة يتملكون (٤٤/٣) من الأراضى العراقية المسجلة كعقار. وبعد تسفير اليهود عام ١٩٤٩، سيطر الشيعة على مقاليد الأمور على الصعيد التجارى فى بغداد، وذلك فى حقبة زمنية عدّها المؤرخون ربيع الشيعة.[(٣)] وبالطبع فإن صعوبة تدرج الشيعة فى المناصب الحكومية العليا جعلهم يتوجهون إلى المضمار التجارى. وعام ١٩٥١ حين إجازت الحكومة العراقية

---

(١) إرث الزوجة فى الفقه الشيعي أكثر منه فى الفقه السنى ، وهذا أحد الأسباب وراء إقدام السنة على تزويج بناتهم من الشيعة ، خصوصاً مع اوائل القرن العشرين . (انظر : شمرانى : ١٢٦-١٢٧) .

(٢) وهم: السيد محمد الصدر وعبدالوهاب المرجانى وصالح جبر وفاضل الجمالى، وبعد هزيمة صدام فى الكويت كلّف اثنين من الشخصيات الشيعية لتولى منصب رئاسة الوزراء ، الأول سعدون حمادى والثانى محمد حمزة الزبيدى .

(٣) انظر : شمرانى : ١٢٧ . على الخصوص بعد تصدّى صالح جبر ومحمد الصدر لمنصب رئاسة الوزراء عام ١٩٤٧ـ١٩٤٨ .

لليهود ان يغادروا البلد ارتفع عدد المهاجرين إلى اكثر من مائة ألـف ممـا تـرك فراغاً ملحوظاً فى السوق التجارية ما لبث أن شغله التجار الـشيعة والمـسيحيون الذين وجدوا فى ذلك فرصة مناسبة ومجالاً جديـداً للقيـام بأنـشطة وفعاليـات تخدم الشرائح الاجتماعية التى ينتمون إليها.[١]

ولابدّ من الاشارة هنا ان حصول الشيعة على مركز الصدارة التجارى لم يلـغ حقيقة أنهم كانوا الأفقر اقتصادياً فى الإطار العام، خاصة أولئك الـذين هـاجروا من العمارة إلى بغداد واستوطنوا المناطق الشرقية منها وكان لهم فيما بعد دور فى ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨.[٢]

جدول يبين المناصب الحكومية التى تقلدها الشيعة إبان العهد الملكـى (دون احتساب رئاسة الوزراء) :

الفترة الزمنية	مجموع المناصب الحكومية	حصة الشيعة منها	النسبة المئوية
١٩٢١-١٩٣٢ (الانتداب)	١١٦	٢٠	١٧\٧
١٩٣٢-١٩٣٦	٥٧	٩	١٥\٨
١٩٣٦-١٩٤١فترة الانقلابات	٦٥	١٨	٧\٢٧

---

(١) فيب مار : ١٧٢ .

(٢) بطاطو : ١١\٧٠ .

الفترة الزمنية	مجموع المناصب الحكومية	حصة الشيعة منها	النسبة المئوية
١٩٤١-١٩٤٦ الاحتلال البريطاني الثاني للعراق	٨٩	٢٥	٢٨\١
١٩٤٧-١٩٥٨	٢٥١	٨٧	٣٤\٧
المجموع	٥٧٥	١٥٩	٢٧\٧
* نسبة الشيعة إلى مجموع السكان عام ١٩٤٧ تساوي ٥١/٤٪			

وفي هذا السياق، يلقي فيب مار نظرة عابرة على تطورات الأحداث في العراق في الأعوام (١٩٢٠ـ ١٩٥٨م):

(استحوذ العرب السنة على جميع مرافق الحياة الاجتماعية تقريباً... ففي الفترة الواقعة ما بين ١٩٢٠ إلى ١٩٣٢ كان الأشخاص الثمانية الذين تقلدوا أعلى منصب سياسي في الدولة جميعهم من السنة).

وفي معرض حديثه عن نفوذ السنة وهيمنتهم على قطاع التربية والتعليم، يضيف فيب مار :

(نظراً لكون الدراسة في المرحلة المتوسطة تمثل مفتاح الرقي والصعود فإن العرب السنة حصلوا على امتيازات ملحوظة في هذا القطاع. ولم يقتصر الأمر على تلقّيهم الدراسة في هذه المرحلة المفصلية، بل هيمنوا على النطاق الأوسع

فى مجال كسب المهارات المهنية، ما اهّلهم لتولّى وظائف الدولة).[١]

أما بخصوص الشيعة العرب فيصرح فيب مار بأن من استطاع منهم تطوير قابلياته الذاتية، فقد تحقق له ذلك فى القطاع الخاص وخارج نطاق المؤسسات الحكومية. ولكن اتساع دائرة التربية والتعليم زاد من نسبة الكفاءات الشيعية المتعلمة بحيث بلغت نسبة هؤلاء مع مطلع عام ١٩٥٨ م حوالى (٥\١٣) من مجموع الشرائح المتعلمة. ويشير فيب مار إلى ان فاضل الجمالى عمل على تشجيع الشيعة على دخول دار المعلمين العالية بحيث ان بداية الخمسينيات شهدت ظهور طبقة جديدة من أصحاب الحرف والأخصائيين الشيعة ممن تم إعدادهم للعب دور مهم فى إطلاق عملية بناء اقتصاد حديث للعراق. وفى غضون تلك السنوات، دخلت إعداد من الشيعة فى وظائف الدولة، باستثناء المجال العسكرى الذى ظلّت ابوابه مغلقة بوجه الشيعة، وظلّت الكليات والمعاهد العسكرية حكراً على السنة حتى ذلك الوقت.[٢]

وتماشياً مع السياسة المتبعة منذ أيام الحكم العثمانى ومعظم أيام العهد الملكى وما تبعه من مرحلة الانقلابات والتحولات السياسية السريعة، ظلّ هناك تقليد سائد يعتبر السنة هم الطبقة السياسية الحاكمة فى العراق وهم الذين يتحكمون فى مقاليد الأمور فى هذا البلد. وكانت أى محاولة لكسر هذا التقليد تتطلب جهداً ووقتاً كبيرين وسياسة خاصة قد لا تتوفر مقوماتها إلا عبر عمل انقلابى. لأن الحكومات الضعيفة التى تصل إلى سدّة الحكم لا تجد بدّاً من انتهاج

---

(١) فيب مار : ٢٢٦-٢٢٧ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٢٩ .

سياسات تتماشى مع العرف السياسى القائم والذى يتضمن ضرورة الإبقاء على القاعدة التقليدية آنفة الذكر. وقد أسفر هذا الوضع المغلق عن ظهور ميل ونزعة لدى الشباب المثقف ثقافة أكاديمية أو حوزوية للانتماء إلى أيّ تيار معارض للنسق السلطوى القائم. وكان هذا هو السبب الرئيسى وراء إقبال الشرائح الشبابية على الانخراط بشغف إلى الجماعات اليسارية وفى مقدمتها الحزب الشيوعى، الذى تمكّن من استغلال مشاعر الرفض لدى أبناء الشرائح المضطهدة اجتماعياً واقتصادياً وعلى رأسهم الشيعة، وإقناع هؤلاء الشباب بالانضمام إليه.(١) وهذا بدوره يفسر ظاهرة إعراض السنة عن الانتماء للتيارات اليسارية والشيوعية، لأن شباب السنة ينتمون في الغالب إلى الأعيان والنخبة الاجتماعية ذات النزعة اليمينية الحريصة على المحافظة على الأوضاع كما هى.(٢)

ان تمتع السنة بهذه المزايا دفع بعض الشيعة إلى تمنّى تغيير هويتهم وانتمائهم المناطقى عسى أن يشفع لهم ذلك فى تحسين ظروفهم المعاشية، وقد عبّر بعض الشعراء الشعبيين عن تلك الرغبة بقوله :

لو عندى ذرّة من العقل   جا بدّلت جنسيتى
جان اصبحت عانى الأصل   جا سجّلت تكريتى !(٣)

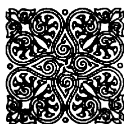
---

(١) المصدر نفسه : ١٦١ . يشار إلى ان مؤسس الحزب الشيوعى فى العراق هو الرفيق فهد ـ من الكلدان ـ بينما نصف أعضاء اللجنة المركزية للحزب من الشيعة وسائر الأقليات .

(٢) الشمرانى : ١٣٨ .

(٣) الشمرانى : ١٣٩ .

الفصل الثالث



تنامي حضور الإيرانيين في العراق

مطلع القرن العشرين

ثمة تقرير مفصل يشير إلى تنامى هجرة الإيرانيين إلى العراق بدءاً من العام ١٩٢١ واستقرارهم هناك لأسباب متنوعة حاول التقرير إجمالها بما يلى :

١ ـ الزوار الإيرانيون الذين يأتون إلى العتبات المقدسة ويبقون فيها بداعى الفقر والحاجة أو بقصد العيش إلى جوار الأئمة.

٢ ـ التجار الإيرانيون الذين اختاروا بغداد والكاظمية كمناطق مناسبة للنشاط التجارى فاستوطنوا فيها.

٣ ـ أعداد غفيرة من عرب خوزستان من موالى الشيخ خزعل غير الحائزين على جوازات إقامة إيرانية قرروا الاستيطان جنوب العراق وفى أطراف البصرة، وذلك لتوفر فرص عمل مناسبة فى تلك المناطق بفعل الحرب العالمية الأولى. والحاصل ؛ إن جمعاً غفيراً من الإيرانيين اتخذوا العراق محل إقامة دائمية لهم، وهؤلاء المهاجرون منهم من حافظ على هويته الثقافية ولغته الفارسية، فيما تخلى البعض الآخر منهم مع مرور الزمن عن ثقافته ولغته.

ويضيف التقرير : (منذ أمد بعيد يقصد الإيرانيون العراق لزيارة العتبات

المقدسة سنوياً، وفى الأعوام الأخيرة يبلغ تعداد هؤلاء الزوار أربعين إلى خمسين ألف زائر سنوياً. وقد يمتنع البعض منهم عن العودة إلى وطنهم الأصلى لأسباب عديدة ؛ منها الخوف أو الافتقار إلى المال اللازم لرحلة العودة، أو بقصد المكوث إلى جوار الأئمة وأحيانا كثيرة لدواع اقتصادية وتجارية لتوفر فرص العمل ووسائل التجارة فى بلاد ما بين النهرين.

ولعلّ عُشر هؤلاء الزوار الإيرانيين يصرفون النظر عن فكرة الرجوع، وبالتالى فان الإيرانيين المقيمين فى العراق يشكّلون الآن ثقلاً اجتماعياً مهماً، وهم يمثلون أغلبية السكان فى جميع المدن المقدسة.

وفى موضع آخر من التقرير المومأ إليه أشار إلى هجرة العرب الإيرانيين إلى جنوب العراق واستقرارهم فى أطراف مدينة البصرة، يقول : (اغلب التجار الإيرانيين الكبار سكنوا بغداد والبصرة والمراكز المدنية الأخرى، وهناك مبادلات تجارية ومالية بين العراق وإيران تتم سنوياً بواسطة هؤلاء التجار).

ويضيف التقرير : (إن عدداً كبيراً من الفلاحين والمزارعين والعمال والكسبة والتجار والكتاب والأدباء والحرفيين ومستخدمى الدولة هم من التبعة الإيرانيين وقد انتشروا فى مختلف مناطق العراق ويشكلون الآن مركز ثقل مهم، كما إن هناك مدناً كالنجف وكربلاء والكاظمية وخانقين أصبحت ذات أكثرية إيرانية بحيث إن لغة التخاطب بينهم هى الفارسية، وربما بلغ إجمالى عدد الإيرانيين فى العراق زهاء نصف مليون نسمة)[١].

---

(١) كوهستانى نجاد : ٦٧-٦٨.

طبعاً، لا تبدو هذه الأرقام دقيقة، لأن إحصائية دقيقة أجريت في النجف الاشرف في مايس \ ١٩٢١ أفادت ان (٥٤٠) إيرانيا فقط هم عدد الحاصلين على إقامة رسمية في هذه المدينة، بينما في إحصائية رسمية أخرى آجراها الانكليز عام ١٩١٩ م أشير إلى وجود (٨٠٠٠٠) مواطن ايراني في العراق !

إن هذا التفاوت الفاحش في الأرقام يكشف حدسية هذه الإحصائيات، وذلك لغياب الشروط اللازمة لإجراء إحصائيات علمية دقيقة.

أضف إلى ذلك أنه ـ ولاعتبارات مختلفة ـ كان الإيرانيون يخفون هويتهم الحقيقية أحياناً، وأحياناً أخرى يحصل العكس حيث يدعي بعض العراقيين أنهم إيرانيون !

وتوجد في هذا الصدد إحصائيات صحفية، منها ما أوردته جريدة (الحبل المتين) سنة ١٩٤٠ شاكية من شحة الصحف الفارسية في العراق وأنه توجد صحفية واحدة منها في النجف رغم ان عدد نفوس الإيرانيين المقيمين في العراق يبلغ ـ حسب الجريدة ـ مائة ألف نسمة. علماً ان مجلة (العلم) للسيد هبة الدين الشهرستاني لها قراء إيرانيون رغم صدورها باللغة العربية.[1]

الإيرانيون المقيمون في العراق وحقوقهم القضائية

في العشرينيات من القرن الماضي وضعت قواعد الدولة الملكية في العراق، ظهر العراق كدولة خاضعة للانتداب البريطاني، وقد سعت هذه الدولة المتشكلة

(١) المصدر نفسه : ٨٢ .

إلى تشريع قوانينها ونظمها الخاصة فى ضوء التجارب السياسية والدستورية التى مرّت بها الشعوب الأخرى. وكانت إحدى مشاكل العراق المهاجرين الإيرانيين الذين تتراوح تقديراتهم ما بين مائة ألف إلى ثلاثمائة ألف.[1]

وفى تلك الفترة كان هناك نظام حصانة للأجانب الموجودين فى العراق وبخاصة البريطانيين منهم. وقد حرصت الدولة العراقية على استثناء الإيرانيين المقيمين فى العراق من شمولهم بهذا القانون ؛ الأمر الذى أثار جدلاً ونزاعاً سياسياً بين الدولتين. تقول إيران إن المواطنين الإيرانيين يقعون ضحية تعسّف المحاكم المحلية فى العراق، والكثير من هؤلاء أشخاص محترمون ما بين عالم وتاجر. ففى مذكرة رفعتها القنصلية الإيرانية فى النجف جاء ما يلى :

(ان مواطنى الدولة العلّية فى أرض ما بين النهرين هم جميعاً من التجار وأصحاب رؤوس الأموال، وممّن يعملون فى عمران هذه البلاد وتحريك التجارة والزراعة فيها، بل أن المواطنين الإيرانيين يشكلون القسمين من سكان هذا البلد).

وعلى أية حال ؛ فإن المسؤولين الإيرانيين كانوا لفترة طويلة يتدخلون فى الشؤون القضائية الخاصة بالإيرانيين المقيمين فى العراق.[2] والذى يحمل الحكومة الإيرانية على التدخل هو الحالة القومية والتباين المذهبى أو العنصرى بين الإيرانيين وأهل البلد. فقد جاء فى إحدى الوثائق الإيرانية : (إن الخلافات

(١) كوهستانى نجاد : ١٤٦-١٥١ .

(٢) كوهستانى نجاد : ١٤٧-١٤٩ .

العنصرية والمذهبية الشديدة التى تعصف للأسف بأوضاع العراق، تجعل الحكومة الإيرانية وجهاً لوجه أمام مسؤولية الحفاظ على سلامة رعاياها وضمان حقوقهم). وقد اقتصرت المطالبة الايرانية فى نهاية الأمر على أن تجرى محاكمة الرعايا الإيرانيين على الأقل فى محاكم محلية يكون قضاتها من الشيعة وتُترك قضية الاستئناف للمحاكم الخاصة للرعايا الاجانب فى العراق).

وعلّل ذلك الأمر بتفادى عامل الخصومة المذهبية القائمة فى العراق على أشدّها بالنسبة للرعايا الإيرانيين.[1]

وقد تشكّلت بالفعل المحاكم الجعفرية فى المناطق ذات الغالبية الشيعية وأنيطت رئاسة هذه المحاكم برجال دين شيعة.

مسألة التبعية

بعد تأسيس الدولة الملكية في العراق انبثاق الأمل بظهور عراق مستقل ذى حدود جغرافية جديدة ومحددة، رافق ذلك طرح مسألة فى غاية الأهمية وهى ماهية (العراقى) وتعريفه. وقد بنى الدستور العراقى الجديد على قاعدة ان العراقى هو الشخص الذى يولد فى العراق من أب مولود فى العراق أيضاً شرط أن يكون الأب موجوداً فى العراق حين ولادة ابنه. وفى ضوء ذلك التعريف اندرج الكثير من الإيرانيين ممن استوطنوا العراق جيلين أو أكثر. وفى ذلك الوقت كان من دواعى الفخر للمرء أن يكون إيرانيا فى عراق متخلّف. وحين اعتمد المعيار أعلاه فى الإحصاء الجديد اعترضت الحكومة الإيرانية والعلماء

(١) المصدر نفسه : ١٥٢ .

الإيرانيين، إذ على أساسه لا يبقى من الإيرانيين المقيمين فى العراق إلا نزر يسير، أما الباقى فسيصبحون عراقيين لا محالة. ولقد جاء فى مذكرة القنصل الإيرانى فى النجف فى تشرين الثانى ١٩٢٤ ان المسؤولين العراقيين صرّحوا بأن (٦٠٠) من الإيرانيين المقيمين فى النجف و(٤٠٠) من الإيرانيين المقيمين فى الكوفة سيعدّون عراقيين فى ضوء القانون الجديد.[١] ويكمن قلق الحكومة الإيرانية فى أن إجراء هذا القانون سيؤدى إلى فقدان إيران لجميع رعاياها فى العراق.

من ناحية أخرى، فإن قضية التجنيد الإلزامى لكل من يحمل الجنسية العراقية سيجعل الإيرانيين الذين يحصلون عليها ملزمين بأداء الخدمة العسكرية، وكان ذلك سبباً لاحتجاجات كثيرة توجت بمطالبة آية الله النائينى مخبر السلطنة للتدخّل لحل المشكلة.[٢]

بالمقابل، كان بعض العراقيين يزعمون أنهم من التبعة الإيرانيين تملّصاً من أداء الخدمة العسكرية الإلزامية. ولا يمكن إنكار أن من أقدموا على هذا الشىء يشكلون عدداً كبيراً، ولكن المرجّح أنه حصل بالنسبة للأسر التى كانت لها جذور إيرانية بعيدة تمتدّ لأربعة أجيال أو أكثر، ومن ثم تعرّبت، فهؤلاء كانوا يسجّلون أنفسهم إيرانيين تفادياً لتسويقهم إلى الخدمة فى الجيش العثمانى، وبدورها كانت الحكومة الإيرانية تحثّ على هذا الشىء تعضيداً للدور الإيرانى فى العراق. يقال فى هذا الصدد أن أسرة الخالصى كانت من الأسر العراقية التى

---

(١) كوهستانى نجاد : ١٥٦-١٥٨ .

(٢) المصدر نفسه : ١٥٩ .

اكتسبت الجنسية الإيرانية هرباً من الخدمة العسكرية.[١] وكانت القنصلية الإيرانية فى العراق حريصة على أن يراجعها الرعايا الايرانيون لإثبات تابعيتهم إلا أن الكثير منهم أحجموا عن ذلك لاستلزامه دفع رسوم مالية.

ويوماً بعد آخر، تدهورت أوضاع الرعايا الإيرانيين فى العراق لأن توظيفهم فى الدولة بات غير ممكن، كما لم يعد بمقدورهم تملّك الأموال غير المنقولة ؛ الأمر الذى حدا بالبعض لأن يتخلى عن الجنسية الإيرانية ويكتسب الجنسية العراقية.[٢] وهذا موقف لم تكن الحكومة الايرانية تستسيغه أبداً.

إن المهاجرين الإيرانيين فى العراق لم يقتصروا على العلماء أو التجار المقيمين فى الأماكن المقدسة بل ان الكثير من أكراد كرمنشاه وايلام الذين كانوا يقطنون الشريط الحدودى بين العراق وإيران هاجروا ايضاً إلى العراق واستوطنوا فيه. وفى الجنوب أيضا هاجر الكثير من المزارعين والكسبة من العشائر العربية فى خوزستان لأجل الحصول على عمل. سنة ١٩٣٨ فقط كان هناك ثلاثة آلاف من هؤلاء يقطنون الكوت مضافاً إلى أعداد غفيرة من العمال ممن يشتغلون فى القواعد والثكنات البريطانية فى جنوب العراق.[٣]

إلا ان الرعايا الإيرانيين المقيمين فى النجف وكربلاء اظهروا اعتزازاً بهويتهم الإيرانية، وكانوا يرفعون علم إيران فى مواكب العزاء الخاصة بهم. لكنهم واجهوا صعوبات فى الاستمرار على هذا النحو فى الأعوام (١٩٢٣ـ ١٩٢٨) الأمر الذى

(١) النقاش : ١٥٥ .

(٢) كوهستاني نجاد : ١٦٠ـ ١٦٢ .

(٣) المصدر نفسه : ١٦٦ .

رفعته القنصليات الإيرانية فـي مـذكرات خاصـة إلـى طهـران. ذات الـصعوبات واجهتها جمعية إيرانية خيرية كانـت تـسعى لمتابعـة المـشاكل الماليـة للرعايـا الإيرانيين فى العراق ومحاولة حلّها.

وفى محاولة للضغط على الحكومة العراقية، قامت طهران تمنع ذهاب الـزوار الإيرانيين إلى العتبات المقدسة. وهـذه القـضية بقـدر مـا خلقـت مـن مـشاكل وصعوبات اقتصادية لأهالى النجف وكربلاء، أوجدت أياً جملـة مـشاكل للطلبـة أدت بالبعض منهم إلى اتخاذ قرار بالعودة إلى إيران وترك الدراسة فى النجـف، مع ذلك أبدى العلماء استعداداً لتحمل هذه المصاعب ما دامت تـصبّ فـى قنـاة الضغط على الحكومة العراقية.(١)

إن تفاقم مشكلات الإيرانيين فى العراق وعدم السبيل لحلّها وتسبّبها فى منع المواطنين الإيرانيين من زيارة المراقد في العراق ـ رغـم مـا تخلّلهـا مـن فتـرة ترخيص ـ كلّ هذه التطورات أسهمت في ولادة رؤية جديدة فـى مراكـز القـرار العليا فى إيران، وكان الركن الأول فى هذه الرؤية هو تشجيع فضلاء الحوزة على استبدال موطن مراجع التقليد من العتبات العاليـة فـى العـراق إلـى قـم ومـشهد المقدسة.

وكان الهدف الأساس مـن هـذا الإجـراء هـو الحيلـوة دون خـروج العملـة من إيران.(٢)

---

(١) المصدر نفسه : ١٦٧ـ ١٦٨، ١٧١ .

(٢) المصدر نفسه : ١٧٤ .

في غضون تلك الفترة صدر في طهران كتاب (دين وشؤون) لأسد الله المامقاني والذي تضمّن توصية بتحويل قم ومشهد إلى مركز لاستقطاب المراجع لتفادي خروج العملة الإيرانية إلى الخارج.[١]

من الناحية المبدئية كان رضا شاه مناوئاً لذهاب الإيرانيين لزيارة العتبات، وذلك في سياق مخالفته للشعائر والطقوس المذهبية، وكان يعبّر عن ذلك من خلال وضعه العراقيل في طريق التواصل برّياً أو عبر البريد والبرق والهاتف ؛ الأمر الذي أدّى إلى تراجع عدد الزوار بشكل حاد، أعقب ذلك الحدّ من نفوذ المراجع المقيمين في العتبات وتأثيرهم على مسار الأوضاع في إيران، وهو ما نسلّط عليه الضوء أكثر لدى الحديث عن حقبة التصدي للمرجعية من قبل آية الله المرحوم السيد أبو الحسن الأصفهاني.

التخلي عن التبعية الإيرانية من قبل بعض الإيرانيين

في تقرير تمّ إعداده في تموز ١٩٥٢ حول أوضاع الإيرانيين في العراق، إن جمعاً كبيراً من الإيرانيين المقيمين في العراق منذ جيلين أو ثلاثة، وعلى أثر الإقامة الطويلة جداً في بيئة اجتماعية وثقافية محلّية، واحتكاكهم المستمر بأبناء البلد (العراق)، لم يعد لديهم من إيران سوى الاسم، والعراق الآن بالنسبة لهم هو الوطن الحقيقي الذي لا يفكرون بالتخلي عنه لأي سبب كان. معظم هؤلاء لا يتقنون من الفارسية حتى كلمة واحدة، وقد تمكّنوا من الحصول على فرص عمل

(١) المامقاني : دين وشؤون : ٦٨ .

في دوائر الدولة العراقية ومؤسساتها، ويتقاضون رواتب شهرية يتدبّرون بها أوضاعهم المعاشية... لقد هجر أولئك موطنهم الأصلي (ايران) ولم يكن بوسعهم إلا ذلك لأنّ عودتهم إلى إيران تعني التضحية بكل شيء، والقانون العراقي في هذا المجال قانون متداول ومعمول به في كل بقاع العالم ومنها إيران ولا غبار عليه من هذه الناحية، لذا نوصي الحكومة الإيرانية بعدم متابعة موضوع تابعية هؤلاء، والأفضل لحلّ هذه المشكلة أن تتبنى الدولة الإيرانية قانون الجنسية المزدوجة لتعبّد الطريق أما عودة الأجيال القادمة من هؤلاء إلى الوطن الأم.[(١)]

يشار إلى أن هذا الأمر لم يتمّ تشريعه في إيران إلى يومنا هذا.

إن التشدد في توفير فرص العمل للأجانب في العراق أفضى إلى اكتساب حوالي ٥٦ ألف إيراني مقيم في بغداد والكاظمية، الجنسية العراقية حتى عام ١٩٣٦ م وفق ما ورد في تقرير بهذا الشأن. وبالطبع كان فقراء الإيرانيين يعانون من صعوبات جمة في الحصول على الجنسية العراقية، بخلاف الأثرياء منهم.[(٢)]

وحتى ذلك الحين، كان عدد العراقيين في العراق كبيراً. ففي إحصائية عام ١٩٣٦ شغل الإيرانيون نسبة العشر من سكان بغداد (٤٠ ألف إلى ٤٠٠ ألف). وفي سامراء ذات الـ (١٥) ألف مواطن يوجد ألف إيراني هناك، وفي الكاظمية سبعة آلاف إيراني من مجموع أربعين ألفا، وفي البصرة حوالي (٧٥٠٠) مواطناً إيرانيا.[(٣)]

---

(١) كوهستاى نجاد : ٢٥٦ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٦١ .

(٣) المصدر نفسه : ٢٥٨، ٢٦٠ .

ومع حلول عام ١٩٣٩ وبعد مضيّ سنوات علـى مـسعى الحكومـة العراقيـة إصلاح الأوضاع فى العراق، قدم مشروع إلى الحكومة العراقيـة تـضمّن التأكيـد على النقاط الآتية وأهمها ما يلى: (بـالنظر للبحـوث والدراسـات التـى أجرهـا الحكومة العراقية على مدى سنوات، بشأن الرعايـا الإيـرانيين، فـإن عـدداً مـن الإيرانيين تخلّوا عن جنسيتهم، وقد اعتبرتهم الحكومة الإيرانية رعايـا عـراقيين بموجب المادة (١٠) من القانون المذكور).[١]

بالرغم من ذلك، فإن عدد الإيرانيين الذين ما زالوا محافظين على جنسيتهم الأصلية حتى بعد مضيّ عدة أجيال على إقامتهم فى العراق، يشكّلون نسبة كبيرة وقد شُرّعت هذه اللائحة من أجل حلّ مشاكلهم.

الأسر العربية والفارسية

كنتيجة لهذا الأخذ والردّ بـشأن وضـع الإيـرانيين المهـاجرين فـى العـراق، انقسمت بعض الأسر الكبيرة المعروفة فى العراق إلى شطرين : عراقى وإيرانى.

وهذا الأمر شمل أسراً ذات أصول إيرانية وأسراً أخرى ذات أصـول عربيـة. فانشطرت أسرة الجواهرى مثلاً فى العقود الأخيرة إلى شعبتين إحداهما حملـت الجنسية العراقية والأخرى حملت جنسية ايرانية. فالشيخ عبد الرسول الجواهرى وولده الشيخ محمد تقى الجواهرى وأحفادهم اكتسبوا جميعاً الجنـسية الإيرانيـة بينما يعدّ محمد مهدى الجواهرى الشاعر العربى الكبير شخصية عراقية.

---

(١) كوهستانى نجاد : ٣٤٢ .

نفس الأمر ينطبق على أسرة الشهرستاني التي تقلّد بعض أفرادها الآن مناصب وزارية في العراق، في حال تجنّس بعضهم بالجنسية الإيرانية نظير السيد عبد الرضا الشهرستاني وأولاده والذين تعرضوا لضغوط كبيرة إبان عمليات التهجير القسري للإيرانيين من العراق.

ولعلّ أحد الأسباب وراء تمسّك بعض الأسر بالجنسية الإيرانية يعود إلى دواع مذهبية على اعتبار إن إيران هي الدولة الشيعية الوحيدة.

بالمقابل، ثمة عوائل ذات أصول إيرانية مؤكدة إلا أن جميع أبنائها أصبحوا عراقيين ومن بين هذه الأسر والعوائل أسرة آل الحكيم. فيما هناك أسر ذا أصول عراقية استوطنت إيران لفترة ثم عادت إلى العراق. والحقيقة التي يجب أن تقال هنا : هي ان التردد بين العراق وإيران ذهاباً واياباً كان أمرا طبيعياً، خاصة الفترة السابقة على ظهور الدولة الصفوية، إذ لم تكن هناك حدود فاصلة بين الدولتين بالمعنى المتعارف عليه الآن.

وفي هذا السياق، يمكن الإشارة إلى آل الخالصي ؛ الأسرة المعروفة بأصولها العراقية ولكنها اكتسبت الجنسية الإيرانية تملّصاً من أداء الخدمة الإلزامية في الجيش العثماني.

المدارس الإيرانية في العراق

يمكن القول بصورة عامة، إن اجراءات السابقة المشار إليها آنفاً لم تمنع الكثير من الأسر الإيرانية العريقة من الحفاظ على هويتها، كما أن استمرار بعض دواعي الهجرة واستقرار الإيرانيين في الأراضي العراقية بقصد التجارة أو

التحصيل فى المدن المقدسة أبقى على أعداد الإيرانيين المقيمين فى العراق فى حالة تزايد أو ثبات.

وبسبب هذا الحضور المكثّف للإيرانيين فى العراق، تأسست مدارس إيرانية عديدة فى مختلف مدن العراق، وكان تأسيس أول مدرسة إيرانية فى النجف على خلفية الحركة المشروطية وبإشراف مباشر من الميرزا مهدى نجل آية الله الخراسانى، وقد حملت اسم (المدرسة العلوية)، ومن ثم أضيف إليها وصف الايرانية لتصبح (المدرسة العلوية الإيرانية) وذلك بعد أن تكفلت الحكومة الإيرانية بتأمين نفقات الدراسة فيها. وهناك مدارس أخرى على هذا النمط مثل (المدرسة الحسينية) في كربلاء، ومدرسة (الإخوة والشرف) فى بغداد والكاظمية.

وقد تبنّت الحكومة الإيرانية نفقات هذه المدارس من الألف إلى الياء.[1]

وما بين العامين ١٩٣٠-١٩٣١ تم تأسيس مدارس أخرى فى بغداد والكاظمية والبصرة وكربلاء والنجف. وكان مجموع الطلبة الإيرانيين الذين يرتادون هذه المدارس فى تلك الأعوام (١٩٠) تلميذا فى النجف الاشرف و (٣٨) في البصرة. وفي تقرير آخر ان عدد التلاميذ (١٢٣) فى كربلاء و(١٥٧) فى النجف و (١٠٨) فى مدرسة الشرف ببغداد.[2] وكانت المدرسة الحسينية فى كربلاء تعدّ واحدة من أفضل المدارس الابتدائية فى العراق.

---

(١) سمامي : ٦٨ـ ٦٩ .

(٢) كوهستاني نجاد : ٢٦٢-٢٦٤ .

ومع مجيء حزب البعث إلى السلطة في العراق، حمل معه نظرة سلبية جداً تجاه المدارس الإيرانية وقد ألف احد المسؤولين في العراق كتاباً عام ١٩٨٤ حمل عنوان (المدارس اليهودية والإيرانية في العراق)، خصص الفصل الأول منه للحديث عن المدارس اليهودية، وخصص الفصل الثاني للمدارس الايرانية بينما خصص الفصل الثالث لمقارنة بين الاثنين. تمّ تأليف الكتاب في السنين الأولى للحرب العراقية الإيرانية، وفيه تجلّت بوضوح النزعة القومية الشوفينية.[(١)]

وكانت الفكرة المركزية للكتاب أن حزب الدعوة انطلق في نشاطه من المدارس الدينية والمدارس الإيرانية التي أورد قائمة بأسمائها وأمكنتها ،مشيراً إلى استمرار فعالية هذه المدارس إلى وقت قريب :

ـ مدرسة الإخوة الابتدائية في الكاظمية، وكان فيها عام (٧٠-٧١) ٦٥١ تلميذاً بينهم الهندي والأفغاني والباكستاني.

ـ المدرسة الحسينية في كربلاء (ابتدائية ومتوسطة)، درس فيها عام (٧٥-٧٦) ٧٢٩ تلميذاً وطالباً و ٤٦٠ تلميذة وطالبة.

ـ المدرسة العلوية في النجف (ابتدائية ومتوسطة) بلغ عدد تلاميذها ١١٤٨ تلميذاً للعام الدراسي ١٩٧١م.

ـ مدرسة الشرافة الابتدائية والمتوسطة في بغداد، تأسست عام ١٩١٣، وصل

---

(١) هذا التوجه ترك أثره المشهود حتى على المسائل التاريخية ، فقد ألّف شخص يدعى عبد الحميد العلوجي كتاباً بعنوان (الكذبة الفارسية يفضحها الحق العربي) ، زعم فيه ان والدة الامام السجاد لم تكن جارية فارسية بل سيدة عدنانية قرشية واسمها ام اسحق بنت طلحة بن عبيد الله التميمي . صدر الكتاب في العراق عام ١٩٨٧ م . وقد تصدى لنقده نبيل الكرخي على موقعه في الانترنت .

تلاميذها عام ٧١ إلى ٣٩٠ طالباً وطالبة.

وعدّد المؤلف مدارس اخرى تأسست فى العراق أيام العهد البهلوى كالمدرسة البهلوية ومدرسة شاهبانو ومدرسة ثريا.[١] وفى خاتمة الكتاب أورد مؤلفه ـ وهو مسؤول أمنى كبير ـ جميع المعلمين والفراشين والكتاب والموظفين فى المدارس المذكورة وبلغ عددهم ٥٥٣ إيرانيا. كما ألمح إلى ان معظم المناهج كانت تدرس باللغة الفارسية.

دفاع الدولة الإيرانية عن شيعة العراق

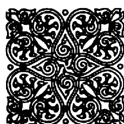
نظراً لكونها الدولة الشيعية الوحيدة فى العالم، لم تقتصر إيران على مصالح رعاياها فى العراق، بل كانت تتدخل فى بعض الأحيان لحماية مصالح شيعة العراق، على اعتبار إن الحكومة الملكية فى هذا البلد كانت سنية المذهب رغم ما تبديه أحياناً من مداراة للشيعة. من ذلک محاولة الحكومة العراقية أيام تولى السيد محمد الصدر لرئاسة الوزراء أن يقيم الشيعة من العرب والعجم مواكب العزاء بحضور ملک العراق، وقد جوبه هذا الطلب برفض العجم ما أثار بعض المشكلات فى هذا الصدد. وقد جاء فى مذكرة وقعتها القنصلية الإيرانية فى البصرة ما يلى : لما كان الشيعة يشكلون الغالبية من سكان العراق ومراجعهم هم العلماء الأعلام، وجلّ هؤلاء بل كلّهم إيرانيون بالفعل أو بالأصل، فإن الحكومة العليّة فى إيران تعتبر نفسها المدافع الطبيعى لرعاياها ولجميع الشيعة، يتعين عليها

(١) فاضل البراک ، ص ١٠٧-١١٠ .

من الناحية السياسية وظائف والتزامات لابدّ من الإيفـاء بهـا حـسب توجيهـات أولياء الأمور فى المملكة الإيرانية.[١]

(١) كوهستانى نجاد : ٧٨ .

الفصل الرابع



المرجعية الشيعية في العراق وإيران

المرجعية العامة

إن طبيعة المرجعية القائمة على أساس العقيدة الدينية والمذهبية حررّتها من الإطار القومي والعنصرى واضفت عليها طابعاً أممياً. ويعدّ هذا الأمر ركناً أساسيا فى كل مرجعية دينية أو مذهبية ولا يختص بالتشيع. ويشهد لهذا تاريخ المرجعية فى الماضى والحاضر التى تداولتها شخصيات عربية ـ كالسيد الحكيم ـ وأخرى إيرانية ـ كالسيد الخوئى ٠ وكان لكليهما نفوذ كبير بين القطاعات الشعبية من العرب أو من العجم. مع ذلك، لا يمكن إنكار تأثير المسألة القومية فى هذا الجانب من الأساس.

والملاحظة الجديرة بالاهتمام بخصوص المرجعية الشيعية هى إنها ظلّت على ارتباط وثيق بإيران حكومة وشعباً منذ بروز إيران كدولة شيعية وحيدة فى القرون الخمسة الأخيرة ومع إن المرجعية الشيعية لم تعدم من لمسات إيرانية طيلة هذه الفترة، إلا أن قوة الوجود الشيعى فى العراق وبعض البلدان العربية الأخرى كانت السبب وراء بروز عدد لا يستهان به من العلماء الشيعة الأفذاذ ممن تخرجوا من الحوزات العلمية العربية. واللافت ان العقود الأخيرة شهدت

ظهور مراجع تقليد من بين شيعة الهند والباكستان وسوريا رغم قلة أعداد الشيعة فى هذه البلدان.

ولكن عموماً، هناك تصور خاطئ مفاده ان المرجعية الشيعية كانت حكراً على الإيرانيين على طول التاريخ. وهذا التصور لا ينسجم مع الحقائق التاريخية الثابتة والجلية والتى نعرفها بشأن توزّع مراجع الدين على مختلف المراكز العلمية فى إيران والعراق، ولابدّ من العمل على تصحيح هذا التصور الأبتر.

عام ١٩٦٦م أعدّ بعض المحققين إحصائية حول ٥٨ مجتهداً شيعياً كبيراً على مدى ألف عام من تاريخ الاجتهاد والتقليد لدى الشيعة أسفر عن النتائج التالية:[١]

من حيث المكانة :

ـ من (٥٨) مجتهداً (٣٤) مجتهداً إيرانيا و(٢٤) عربياً.

ـ من (٢٤) مجتهداً عربياً (١٦) عراقياً وسبعة سوريون وواحد من عمان.

من حيث المكان :

ـ (٤٠) منهم درسوا فى العراق.

ـ (١٤) درسوا فى إيران.

ـ (٤) فى مناطق متفرقة.

وبعد الحصول على رتبة الاجتهاد استوطن من هؤلاء :

ـ (١٨) فى إيران

ـ (٦) فى سورية

ـ (٣٤) فى العراق

ونقول بشكل عام : إن المرجعية الشيعية نوع من الرابطة الأممية – لا الدولية – مردّها إلى الحضور الشيعى القوىّ بين القوميات العربيـة والفارسـية والكرديـة والتركية والباكستانية والهندية، وبالتالى فان الزعامة فيها ذات طابع أممى يتخطى الحدود القومية والوطنية. ولكن حيث ثبت بالتجربة أن ثمة تقاطعاً بين المـصالح الأممية والقومية والوطنية، نشأ التصور بلزوم أن تكون المرجعية الشيعية إيرانيـة أو عربية أو تركية أو غير ذلك.

وهذا التصور وليد جذوره الوطنية والقومية اكثر مما هو ناجم عن مقتـضيات الواقع الشيعى بذاته. والشاهد الجلىّ على صحة ما نذهب إليه هو طبيعة المواقف التى تصدر عن المرجعيات الشيعية بمختلف أدوارها وأشكالها وانتماءاتها حيـال القضايا والتحديات السياسية والاجتماعية التى تعصف بالأمة بين حـين وآخـر، والتى لا تختص ببلد معين. على سبيل المثال الأنشطة السياسية التى قام بها شيخ الشريعة الأصفهانى الذى تصدى للمرجعية بعد وفاة الميرزا محمد تقى الشيرازى. فنظرة عابرة على مواقفه من خلال البيانات التى اصدرها فى المناسبات المختلفة تميط اللثام عن طبيعة الهمّ الإسلامى العام الذى كان يحمله :

ـ بيانه فى الدعوة إلى وحدة المسلمين للوقوف بوجه الاعتداء على الأراضى الإسلامية عام ١٩١٠ م.

ـ إعلانه الجهاد ضد روسيا القيصرية لتجاوزها على إيران عام ١٩١١ م.

ـ إعلانه الجهاد ضد العدوان الايطالى على ليبيا عام ١٩١١.

ـ الوثائق المتعلقة بالحرب فى العراق عام ١٩١٤.

ـ الوثائق المتعلقة باحتلال العراق من قبل الانجليز خلال الأعوام ١٩١٤-١٩٢٠ م.

ـ وثائق ثورة العشرين فى العراق. [١]

خلال ثورة العشرين كان قادة العشائر العربية يأتمرون بأوامر المرجعية الشيعية دون أن يخطر فى بال احد منهم ان هذا المرجع عربى أو فارسى، مما يدلّل على طبيعة هذه الزعامة. ونفس الكلام يتكرر لدى الحديث عن مرجعية السيد محمد كاظم اليزدى أو محمد حسين النائينى.

فى ذلک الوقت، كان من الطبيعى أن تكون معرفة هؤلاء المراجع مقصورة على المحيط الذى يعيشون فيه، نظراً لضعف وسائل الاتصال، وبالتالى فإن تأثيرهم يكون محدوداً بهذا المحيط ولا يتعداه إلا نادراً. وقد كان لحالة الاضطراب السياسى التى عمّت العراق فى سنى ما بعد الحرب العالمية الأولى وانهيار الدولة العثمانية أثر عميق فى ذلک.

المرجعية والقضايا القومية

مع ما ألمحن اليه آنفاً من أن المرجعية من الشؤون التى تجاوزت الأمر القومية والوطنية، إلا أن ذلک لم يحل دون أن تخضع عملية اختيار المرجع لاعتبارات قومية. فبُعيد وفاة الشيخ مرتضى الأنصارى عام (١٢٨١ هـ ش\١٨٦٤ م)، كان للمرجعية أربعة مرشحين : الميرزا حسن الشيرازى،

---

(١) الجبورى ، شيخ الشريعة : ١٠٧ .

والميرزا حبيب الله الرشتى، والشيخ محمد حسين الكاظمى، والسيد حسين الكوهكمرى، وقد اتجه العرب نحو الكاظمى، واتجه الترک نحو الكوهكمرى، بينما توزّع الفرس على مرجعية الشيرازى والرشتى.(١) وهذا يشير بوضوح إلى أن الدوافع القومية لم تكن عديمة التأثير.

وابان العهد القاجارى والحكم المظفرى على وجه التحديد : ونظراً لهمينة الأتراک واتساع نفوذهم فى البلاط القاجارى، آلت المرجعية فى ايران إلى فاضل الشريانى والشيخ محمد حسن المامقانى فيما تراجع النفوذ المرجعى لكلّ من الميرزا حسين والآخوند الخراسانى إلى المرتبة الثانية إلى أن توفى الأوّلان وباتت الطريق معبدة أمام مرجعية الخراسانى. (٢)

والواقع ان هذا الأمر لا يمكن ان يحس برمّته فى خانة الاعتبارات القومية بقدر ما أن للمعرفة المناطقية أثراً فى هذا الصدد. ففى زمان مرجعية آية الله الحكيم ظلّت محافظة خراسان مقفلة على مرجعية آية الله الشاهرودى (على اعتبار ان شاهرود من مدن خراسان). وكان للاختلاف بين العرب والعجم فى اختيار مرجع التقليد وفى التأثير على المواقف السياسية أهمية ملحوظة، حتى قيل إن العرب الشيعة فى النجف كانوا على علاقة سلبية بالحركة الدستورية المشروطة فى إيران التى كانت موضع تأييد الطلاب الإيرانيين المقيمين فى النجف. وقد عزا احد الكتاب هذا الموقف لشيعة العراق حيال الحركة المذكورة

---

(١) الوردى : ٣\٨٧ .

(٢) ألفت : ٢٤٨ – ٢٥١ .

إلى التركيبية النفسية العربية التى تقاوم التغيير والتحول.[١] ولا يخفى ما فى هذا الرأى من تطرف.

التركيب القومي لحوزتي النجف وكربلاء

للنجف ثلاث خصائص تستهوى الإيرانيين الشيعة ؛ الأولى وجود مرقد الإمام على عليه السلام والثانية كونها الحاضرة العلمية الكبرى للشيعة ومركز تواجد العلماء والمجتهدين. والخصيصة الثالثة وجود مقبرة وادى السلام التى تشجّعهم على البقاء فى النجف والموت فيها !

إن القسم الأعظم من الإيرانيين الذين قصدوا العراق واستوطنوا فيه كان هدفهم التحصيل العلمى فى هذهالحاضرة الشيعية التى يبلغ عمرها زهاء ألفعام.

الكثير من هؤلاء عادوا إلى مسقط رأسهم بعد حصولهم على رتبة الاجتهاد. والبعض بلغ حدّ المرجعية أو ما يقرب منها من المواقع العلمية، فيما عكف البعض الآخر على مزاولة التدريس فيها. أغلب هؤلاء من الإيرانيين والقليل منهم من العرب.

إن إحدى أهم الوسائل لمعرفة الانتماء القومى لهؤلاء هو ألقابهم المناطقية التى كان يظهر منها بجلاء انتسابهم إلى إيران، مضافاً إلى أن إلقاء نظرة على سيرة حياة كل واحد من هؤلاء تسلط الضوء الكافى لمعرفة ان هذه الشخصية تنتمى لأية منطقة.

فى تقرير عن المدارس الدينية فى كربلاء عام ١٩٢١ م وردت أسماء أربع

(١) المصدر نفسه : ٢٥٨ .

مدارس مع مدرّسيها على النحو الذى يشير إلى ان جميع الاساتذة من الايرانيين : (مدرسة حسن خان وأساتذتها الشيخ سعيد الفارسى والسيد سعيد التنكابنى والشيخ محمد تقى الأصفهانى والميرزا يحيى الزرندى. اما المدرسة الهندية فقد كان يدرس فيها كل من الشيخ محمد على القمى والسيد حجى آغا مير، ومدرسة صدر الدين الشيرازى ويدرس فيها الشيخ موسى الكرمنشاهى، ومدرسة الشيخ مهدى وفيها من المدرسين الشيخ محمد حسن المازندرانى).[١]

ويقال بشكل عام ان مدينة كربلاء لم تكن تحمل طابعاً عربياً، نظراً لكثرة الرعايا الإيرانيين المقيمين فيها أكثر من النجف. وكان التحدث بالفارسية أمراً معهوداً فى كربلاء بالقياس إلى النجف التى حافظت على طابعها العروبى أكثر ؛ حتى ان بعض الإيرانيين الذين يستوطنون فى النجف يقومون بعد مدة من الزمن بارتداء الكوفية والعقال بالعربى ويتحدثون العربية. ويقال ان صدام تحدث ذات يوم خلال حملات التسفير ـ وقال إنه مرّ بأسواق كربلاء فوجد أصحاب المحال التجارية فيها يتبادلون الحديث بالفارسية وكأن المدينة مستعمرة . ومعلوم أن التحدث بالفارسية كان شيمة المناطق ذات الأغلبية الإيرانية من حيث النفوس، وهذا الكلام يصدق حتى على بعض محلات النجف.

أما أطراف المدينة سواء فى كربلاء أو النجف، فكانت اللغة المتداولة بينهم هى العربية لكون أغلبهم من العرب. ولقد كان للدعاية البعثية أهدافها الخاصة فى الإيحاء بأن الحوزة فى النجف تفتقر إلى الهوية العربية بل أكثر من ذلک اتهام

---

(١) كوهستانى نجاد : ٨١ . وقد تحفظ الأستاذ جلالى على ما ورد فى هذا التقرير معتبراً انه لا يعكس واقع الحال خاصة فى حوزة كربلاء القليلة الطلاب والتى يبدو الوجود العربى فيها واضحاً .

السكان القاطنين فى المدن المقدسة بأنهم إيرانيون. وفى أيامنا هذه، فإن الكثير من علماء النجف ينتمون إلى أسر وقبائل عربية مشهورة، نظير (آل القرشى) الذين كانت بينهم شخصيات معروفة فى القرنين التاسع عشر والعشرين وهم من عشيرة الجعافرة من بطون ربيعة.[١]

وثمة أيضا وجوه من أسر اخرى مثل آل الاسكافى وآل شكر وآل كعب وآل الأعسم (من عشيرة زبيد من عوف من مسروح من حرب من بطون مضر). وكذلك آل محيي الدين وآل الطريحى وآل عيسى (من سكنة السماوة)، وآل العنيزى[٢] وآل الدجيلى وآل شبر[٣] وآل عبد الجبار والبلداوية والعادلى والخرسان وخمايسى والجبور وآل خدام[٤] وغيرهم من القبائل العربية التى برز منها علماء دين فى القرن التاسع عشر.

فى هذه الفترة، نشط العديد من علماء البحرين فى العراق وهم عرب رغم ترددهم على ايران احياناً. ونظرة عابرة على سيرة العلماء الشيعة فى القرن الثالث

---

(١) آقا بزرك ، الكرام : ٦٩٠ .

(٢) كانت قبيلة عنيزة فى وقت من الأوقات فى منطقة الدرعية وزعيمهم وطبان الذى حكم تلك المنطقة عام ١١٢٣ هـ إلى أن قتل عام ١١٣٩ هـ . ومن عشائرهم آل لبيب الذين يرجعون إلى آل مانع النجدى ، وقد هاجر قسم من آل لبيب إلى سوق الشيوخ واستقرو هناك ، وقصد شيخهم عبد على لبيب وابنه النجف ام ١١٨٧ م لغرض الدراسة . وكان يتردد على عشيرة الأحلاف فى البصرة حتى توفى عام ١٢٠٦ هـ . هذه القصة دليل على هجرة بعض القبائل الشيعية العربية من نجد إلى العراق أو إقامتهم هناك وتغيير مذهبهم ، ناهيک عن تشيع بعض القبائل العربية فى نجد والحائل قبل ظهور الوهابية . انظر : (عبد الكريم محمد على) تاريخ مدينة سوق الشيوخ (بغداد ، ١٩٩٠) ص ٢٠٦ـ ٢٠٨ .

(٣) آل شبّر من السادة وأصلهم من الحلة . انظر : آقا بزرک ، الكرام ، ٥٦٥ .

(٤) آل خدام من آل شيبة وهم من باهلة وهى قبيلة من قيس عيلان والعالم المقصود هو الشيخ خضر العفكاوى ، ولد فى عفک بين دجلة والفرات .

عشر الهجرى كما أوردها آقا بزرک فی كتاب (الكرام البررة) تؤيد وجـود نـسبة كبيرة من علماء البحرين ممن يحملون القاباً مناطقية وينتسبون من خلالهـا إلـى مناطق متفرقة فى البحرين من قبيل : الخطّى والتوبلى والمـاحوزى والعـصفورى والشوبكى والبلادى والغريفى، والأعمّ من ذلک كله لقب البحرانى الذى كان مـن الألقاب المميزة لعلماء القرن الثالث عشر، على غرار انتساب علمـاء لبنـان فـى حوزة النجف إلى جبل عامل وانتساب علماء المنطقة الشرقية بـالجزيرة العربيـة إلى الإحساء والقطيف.

وفى ضوء ذلک يمكن تصنيف مكونات الحوزة العلمية فـى النجـف بحلـول عام ١٩٥٧ م إلى ما يلى :

- البحرين والقطيف والإحساء : ٢٠
- سورية ولبنان : ٤٧
- الهند وكشمير: ٧١
- هضبة التبت : ٣٢٤
- العراق : ٣٢٠
- إيران : ٨٩٦ (١)

أهم مراجع التقليد في فترة الهيمنة العثمانية على العراق

يبدأ العصر الأخير للمرجعية الشيعية مع مرجعية الوحيد البهبهانى الذى تولّى

---

(١) الشمرانى : ١٢٢ .

منصب المرجعية للفترة (١٧٦٠-١٧٩١). وحتى ذلك الحين كانت المرجعية تحمل مفهوماً علمياً أكثر من كونها منصباً لإدارة شؤون الشيعة. وبعبارة أخرى ؛ كان المرجع هو الأستاذ الذى يفوق الجميع فى مقدرته العلمية والاجتهادية دون أن يشترط فى ذلك أن يرجع اليه كل الشيعة أو جلّهم فى التقليد. وهو الشىء الذى تبلور لاحقاً إثر تطور وسائل الاتصال وخاصة البريد والبرق، حيث لعبت هذه الوسيلة دوراً بناءً فى تمكين الإيرانيين من التواصل بشكل منتظم مع مراجعهم فى العتبات المقدسة.[١]

وبعد رحيل الوحيد البهبهانى تولّى عدد من طلابه مقام المرجعية تباعاً السيد محمد مهدى بحر العلوم (م ١٢١٢ هـ) والشيخ جعفر كاشف الغطاء (م ١٢٢٨ هـ) ـ فى النجف ـ والسيد على الطباطبائى (م ١٢٣١ هـ) فى كربلاء.

ومن بين هؤلاء الثلاثة كان الشيخ جعفر كاشف الغطاء[٢] مجتهداً عربياً بلغ القمة فى زمانه من الناحية العلمية، وله طلاب بارزون كصاحب الجواهر وحجة الإسلام الشفتى. وقد توفى كاشف الغطاء سنة ١٢٢٨ هـ وقد رشح السيد بحر العلوم الشيخ جعفر لتولّى مقام الإفتاء بُعيد رحيل الوحيد البهبهانى.

فى هذه الأثناء، كانت المرجعية فى إيران تتوزع بين الملا احمد النراقى (م ١٢٤٥ هـ) والميرزا القمى (م ١٢٣١ هـ) فيما قدم السيد محمد المجاهد (م ١٢٤٢ هـ) من كربلاء إلى إيران للاشتراك فى الحرب الروسية ـ الإيرانية فى

---

(١) النقاش : ٩٧ ، منظور الأجداد : ٥ .

(٢) وهو الشيخ جعفر بن الشيخ خضر بن يحيى بن سيف الدين المالكى من بنى مالك العشيرة العراقية المعروفة التى تنتشر فى نواحى الحلة والشامية ويعود نسبهم إلى مالك الاشتر . انظر : آقا بزرك ، الكرام : ٢٤٩ .

واحد من أجلى مظاهر تدخل علماء النجف فى الشؤون الداخلية لإيران.

ويقال ان المرجعية بشكلها المطلق والمركزى برزت كظاهرة فى زمان الشيخ محمد حسن الأصفهانى النجفى (م ١٢٦٦ هـ) المعروف بصاحب الجواهر، وفى هذه الفترة استحكمت العلاقة بين حوزة النجف وإيران، حيث عرف عنه تساهله فى منح إجازات الاجتهاد للطلبة، مما أدى إلى ظهور الكثير من المجتهدين من طلابه وقد انتشروا فى شتى المدن الايرانية.[١]

وفى هذا السياق ينقل عن الشاه محمد القاجارى تعريضه بكاشف الغطاء بالقول ان الشيخ لديه ختم الاجتهاد يضربه على كل طالب يذهب إلى النجف فيعيده إلى إيران مجتهداً !

لكن صاحب الجواهر كان ينظر إلى الموضوع من زاوية أخرى، حيث يقول انه لا يمنح هؤلاء إجازة اجتهاد بل يفوضهم أمر القضاء، لأنه لا يشترط فى القاضى أن يكون مجتهداً بل يكفى التقليد.[٢]

ويقال ان الحكومة الإيرانية قررت أن تختم على إجازات الاجتهاد المعتبرة لكى تضيّق من دائرة العمل بهذه الإجازات وما زالت هناك بعض الإجازات المختومة من قبل الحكومة.

الشيخ مرتضى الأنصاري :

من مدينة ديزفول (م ١٢٨١\ هـ) تقلد وسام المرجعية مباشرة بعد وفاة

---

(١) آل محبوبة ، ماضى النجف وحاضرها : ١٢٩\٢ .

(٢) الوردى : ٨٥\٣ .

صاحب الجواهر عام ١٢٦٦هـ وعمره آنذاک (٥٢) عاماً فقط، واستمر مرجعاً للشيعة إلى وفاته ولمدة (١٦) عاماً. وبعد المرحلة التى كان لعلماء النجف فيها مشاركة فى الحروب الإيرانية ـ الروسية، لم نعهد أى فعالية سياسية فى عهد صاحب الجواهر أو الشيخ الأنصارى، يمكن عدّها تدخلاً فى شؤون البلد المهمة سواء فى ايران أو المناطق الخاضعة للنفوذ العثمانى.

فى مقابل ذلک، شهت هذه الفترة ظهور تيارات دينية مثل الشيخية والبابية فى الأماکن المقدسة تسبب فى حصول تطورات مهمة، ولا يستبعد وجود أياد خفية حاولت التدخّل فى شؤون الحوزة وقتئذ.

الميرزا الشيرازي (م\١٣١٢ هـ) :

وهو قائد ثورة التنباک ضد الانجليز والحكومة الإيرانية عام ١٨٩٢ م. وتزامن مع مرجعيته مراجع تقليد آخرون منهم السيد حسين الكوهكمرى (م\١٢٩٩) والميرزا حبيب الله الرشتى (م\١٣١٢) ومحمد حسن الشريعتمدارى الاسترآبادى (م\١٣١٨) ومحمد حسن الآشتيانى (م\١٣١٩).

واعتباراً من سنة ١٨٧٤ م \١٢٩١ هـ اصبحت مرجعية الميرزا الشيرازى مرجعية مطلقة.

إن أحداث ثورة التنباک أبرزت درجة النفوذ التى تتحلى بها المرجعية بين أوساط المجتمع والتى هى حصيلة تراكمية لجهود العلماء على مدى قرون. ويعتبر هذا الحدث الكبير ثانى مظهر من مظاهر تدخّل الحوزة فى الشأن السياسى والاجتماعى بعد مشاركة جمع غفير من علماء الحوزات العلمية فى

النزاع الروسى ـ الإيرانى. ومع إن المرجعية الشيعية تشكلت فى عهد صاحب الجواهر والشيخ الانصارى، إلا أن المرجعية بشكلها الجديد وخاصة من ناحية تأثيرها، هى البذلة الرسمية اتى فصّلت على مقاسات الميرزا الشيرازى.

وحتى ذلك الوقت، لم يكن للمرجعية الشيعية مواقف مناوئة للسلطة الشيعية، حتى أنها كانت حذرة جداً فى تعاطيها مع قضية التنباک كيلا يقود ذلك إلى الطعن بالسلطة الشيعية. وهذا التوجه والأسلوب فى التعامل مع السلطة ترک أثره الواضح لمدة طويلة من الزمن، باستثناء فترة حكم محمد على شاه حيث انتكست هذه العلاقة كثيراً.

ان آخر المراجع الإيرانيين ذوى المكانة والتأثير على الحوزات العلمية فى العراق هما الآخوند الملا محمد كاظم الخراسانى (م\١٢٢٩) والسيد محمد كاظم اليزدى (م\١٣٣٧). وقد تولى كل منهما زمام المرجعية لفترة من الزمن، ونظراً للخلاف الذى برز شعبياً حيال الحركة المشروطة فى إيران، فقد انقسم الناس فى تقليدهم على هذين المرجعين.

وقد كانت الأوساط الشعبية والنخبوية قد انقسمت إلى فريقين أساسيين عرف الأول منهما بأتباع (المشروطة)، وعرف الثانى بأتباع (المستبدة) وذلک تعبيراً عن الخلاف الدستورى الذى نشأ فى مجلس الشعب الإيرانى حول تحديد صلاحيات الحاكم أو تقييدها بسلطة نواب الشعب. وقد تعمّق الخلاف وتحول إلى نزاع ضار بين الفريقين وصل إلى حدّ اتهام كل فريق للآخر بالكفر والخروج عن الملّة.

ولعلّ أهم ما يميّز المرحوم اليزدى اهتمامه وحرصه على قصر تدخل الحوزة فى الشأن السياسى على حدود الضرورة فقط. على أن هذا المنحى لم يكن هو الحاكم على الإطلاق، فالشواهد التاريخية تؤكد أن مرجعية النجف حافظت على الدوام على مستوى معين من التدخّل فى سياسة البلدين (العراق وإيران)، رغم أن التوجه العام والسائد هو الذى يتفادى الدخول فى المعترک السياسى. ومعروف أن السيد اليزدى بذاته اندفع كثيراً فى مواقفه النضالية المناوئة للانجليز فى الأعوام ١٩١٦ ـ ١٩١٧ م.

لقد بلغ تدخل حوزة النجف فى الشؤون الايرانية أقصى مدىً له إبان مرجعية الآخوند الخراسانى والسيد اليزدى، ومردّ ذلک إلى خطورة الأحداث والتطورات التى شهدتها الساحة الإيرانية حينها. لقد كانت الحركة الدستورية المشروطة فى إيران سبباً لتدخل علماء النجف فى الشأن السياسى استناداً إلى المنحى الذى سلكته من قبل مدرسة سامراء، وبفعل إصرار رجال الدين المنتشرين فى أوساط المجتمع الإيرانى، وقد استمر الوضع على هذا المنوال خلال الإعدام ١٩٠٥ـ١٩١١ م.

ومع حلول عام ١٩٠٨ م، انطلقت حركة دستورية مماثلة فى تركيا أدت إلى تحقيق بعض المكتسبات، مما شجع الشيعة العرب ـ الذين كانوا إلى ذلک الحين متحفظين إزاء ما يجرى فى إيران ـ على الانخراط فى سلک المطالبين بإصلاحات دستورية، فالأمر الآن يرتبط بمصيرهم بشكل مباشر. وكان أول إجراء فى هذا السياق افتتاح مدرسة للشيعة فى مدينة الكاظمية حملت اسم

المدرسة الجعفرية ـ العثمانية والتى كانت بمثابة بوابة العرب الشيعة للدخول إلى عالم جديد.[(١)]

وفى هذه الأثناء ظهر النشاط الثقافى الشيعى بوجهيه الإيرانى والعربى فى الكاظمية والنجف، وأقيمت علاقات ثقافية رصينة وعلى مستوى ملحوظ بين مؤسسات النشر العربية كالمنار والمقتطف والهلال ونظيراتها الشيعية فى العراق كمجلة العلم فى النجف ومن بعدها مجلة العرفان فى صيدا.

الميرزا محمد تقي الشيرازي (م١٣٣٩ هـ) :

وهو المجتهد الذى أرخت له المرجعية المطلقة عنانها رغم وجود شخصيات علمائية بارزة من الشيعة فى العراق وقتها. وقد تطرقنا آنفاً إلى دوره القيادى فى ثورة العشرين العراقية.

الميرزا فتح الله شيخ الشريعة الأصفهاني (م١٣٣٩ هـ)

بعيد وفاة الميرزا الشيرازى فى خضم أحداث ثورة العشرين، آلت الزعامة الدينية إلى الميرزا شيخ الشريعة الأصفهانى ـ الذى لم يلبث آن وافاه الأمل أيضاً ـ وفى غضون ذلك تراجع الدور الذى تلعبه مرجعيات النجف فى الشأن الإيرانى وذلك بفعل انشغالها بتطورات الوضع فى العراق، مضافاً إلى إخفاق قادة الحركة المشروطة فى إيران فى تحقيق ما يصبون إليه، وتفاقم هذا الوضع مع وصول رضا خان إلى سدّة الحكم.

---

(١) آقا بزرک ، الكرام البررة : ٧١٤\٢ .

مراجع النجف والحكومة الايرنية

لقد طرأ تحول جذرى على طبيعة التعاون والتنسيق بين السلطة فى إيران وكبار المراجع الشيعة على مدى الفترة الممتدة من العصر الصفوى حتى العصر القاجارى. وقد طرأ هذا التحول تحديداً إبان حكم نادر شاه (م ١١٦٠ هـ)، حيث اتسمت العلاقة بين السلطة الايرانية والمرجعية الشيعية قبل مجيء نادر شاه، بمستوىً عال من الودية والتفاهم والتطابق فى وجهات النظر. ولكن العلاقة المذكرة تعرضت الى انتكاسة كبيرة إبان حكم نادر شاه وبعده، حتى بات المرجع يتحاشى التقرب من البلاط القاجارى لكى لا تفسد عليه شعبيته. والظاهر ايضاً أن القاجاريين كانوا غير متحمسين لوجود المرجعية العليا للشيعة فى ايران، لما يشكّله ذلك من مزاحمة لصلاحياتهم.

يقال ان الملك القاجارى ناصر الدين شاه كان شديد الخشية من عواقب النفوذ المتزايد للشيخ عبد الحسين الطهرانى ممّا جعله يفكر فى إبعاده الى العتبات المقدسة فى العراق، إلا أن المكانة الشعبية الواسعة للشيخ جعلت الملك يصرف النظر عن هذا الموضوع[1].

غير ان وجود مراجع التقليد الكبار فى العتبات المقدسة فى العراق لم نحلّ مشكلة القاجاريين، خاصة وأن وجود المراجع فى العراق منحهم قدرة اكبر على التحرر من قيود الحكم القاجارى وأساليبه التعسفية.

ومع عناية علماء الشيعة بالدولة القاجارية كدولة شيعية وإدراكهم لطبيعة

(١) آقا بزرك : الكرام البررة : ٢\٧١٤ .

الصراع التنافسی بين العثمانيين والقاجاريين الذين ورثوا الدولة من الصفويين، ولكن مراجع الدين الشيعة أبوا الخضوع لإملاءات السلطة القاجارية. على سبيل المثال : قبل أحداث ثورة التنباک بأعوام، وحينما كان ناصر الدين الشاه قادماً من كربلاء الى النجف، خرج الكثير من العلماء لاستقباله، لكنّ الميرزا الشيرازی امتنع عن اللقاء بالملک حتی فی مكان إقامته بالنجف، واكتفی بلقاء عابر معه فی الحرم العلوی الشريف. وحين سأله أحد الوزراء فی حاشية الملک عن السبب، أجابه الميرزا : (أنا رجل درويش، ما شأني والملوک؟!).[١]

ان أحداث ثورة التنباک ساهمت فی توتير العلاقة بين الحكومة الايرانية، والحوزة العلمية فی النجف، وبلغ الأمر حدّ أن يفتی بعض المراجع بأن الدولة القاجارية دولة ظالمة ومستبدة، خاصة بعد تطورات الحركة الدستورية المشروطة. وفاقم من هذا الوضع كثرة النصوص الشرعية التی تنهی عن التقرب من الملوک. وقد تجذّر هذا الخلاف أيام المشروطة ثم تعمق فی زمان رضا شاه حيث تأزم الوضع كثيراً بعد ذلک.

مع كل ذلک، بقی هناک نوع من التعاطف يبديه المراجع والعلماء حيال ايران كونها مركزاً للتشيع وحصناً منيعاً له، وفی مقابل ذلک كانت الحكومات الايرانية تری فی وجود العلماء فی الحوزات العراقية طريقاً لتعزيز نفوذها فی العراق، شرط أن تحصل علی اعتراف المراجع بشرعية هذه الحكومات ؛ الأمر الذی كان عزيز المنال.

---

(١) الوردی : ٣\٨٧ـ ٨٨ .

وذات مرة، زعم القنصل الايرانى فى النجف صفاء السلطنة نقلاً عن الحاج الميرزا أبى القاسم العلامة الطباطبائى فى لقاء جمع الاثنين ما مفاده ان الميرزا يرى التعاون مع موظفى الحكومة الايرانية واجباً شرعياً وهو فى حكم العمل مع أمير المؤمنين عليه السلام، لأن ايران هى مركز التشيع وعاصمتها طهران.(١)

غير ان هذا الشخص رفض نشر هذه المزاعم، وهو معروف بتملّقه للسلطة، بل بعمالته للأجنبى، على أنه ينقل عنه فى مناسبات اخرى قوله ان بعض المراجع يحرّمون زيارة القنصل.(٢) وان كانوا يطلبون بعض المساعدة المالية من القنصلية على حدّ قوله.

الشيعة ما بين العثمانيين والانجليز

فى العقود الأخيرة من الحكم العثمانى، ازدادت الضغوط على الشيعة فى العراق، وكانوا يعدّون مواطنين من الدرجة الثانية أو الثالثة. ومع أفول نجم الدولة العثمانية برز الانجليز كقوة عظمى فى معادلة الصراع، وكان على الشيعة فى العراق ان يختاروا أحد الأمرّين : مناهضة العثمانيين ومسايرة الانجليز، أو إعلان الجهاد ضدّ الانجليز الذى هو بمثابة انقياد لفتاوى الجهاد التى أطلقها شيوخ الاسلام العثمانيون لحشد الدعم لصالح الآستانة.

وفى هذا الصدد ينقل كامل الجادرجى ان الطائفة الشيعية كانت تعدّ أقلية أيام حكم السلطان عبد الحميد، وكان ينظر اليهم نظرة عدائية من قبل جهاز الحكم

(١) كوهستانى نجاد : ٧٩-٨٠.

(٢) المصدر نفسه ..

العثمانى، ولذلك لم يفسح المجال بوجههم لتحقيق تقدم فى أى مجال من مجالات الحياة. وعلى سبيل المثال لم يكن يسمح لأى شيعى بالدخول فى مدرسة عسكرية، وما عدا حالات نادرة جداً لم يكن يتاح لأى شخصية شيعية أن تحتلّ لها منصباً من مناصب الدولة، بل ان العراقيل توضع فى طريق دخول أبنائهم المدارس الحكومية.[١]

وقد تكون وراء ذلك دوافع قومية بقصد الحؤول دون نفوذ الحكومة الإيرانية، وليس لأسباب طائفية فحسب.

ويعلّق حسن العلوى عند نقله الكلام السابق للجادرجي بالقول ان اللافت للنظر أن القادة السنة فى العراق الذين كانوا يدينون بالولاء للدولة العثمانية كانوا لا يجيدون العربية بطلاقة وذلك ان معظم دراستهم الابتدائية فى المدارس التركية، لذا كانوا يستعينون بالوزراء الشيعة فى حال احتاجوا الى اصدار بيان باللغة العربية ! ويضيف العلوى حقائق أخرى تدلّ على ظاهرة التمييز الطائفى منها أن الحكومة العثمانية كانت تقوم بارسال شخصيات سنية كمتصرفين وحكام للولايات والمدن الشيعية مثل كربلاء والعمارة والديوانية والناصرية.[٢]

والمفارقة الأكبر ـ يضيف العلوى ـ ان العلماء السنة فى العراق لم يتقيّدوا بدعوات شيوخ الاسلام فى اسلامبول والتى تنصّ على وجوب محاربة الانجليز الكفار، بل إنهم جاروا الانجليز، فى حين أن الشيعة الذين تعرّضوا لاضطهاد

---

(١) انظر : من اوراق كامل الجادرجي ، بيروت : ١٩٧١ ، ص ٨٦ .

(٢) العلوى : ٥٩ .

وقمع مرير لفترات طويلة ولم تعترف الدولة العثمانية بهم رسمياً، رفعوا راية الجهاد بوجه الانجليز ! وقد أورد العلوى قائمة بأسماء العلماء والشخصيات السنية التى تواطأت مع الانجليز.[١] هذا، وقد بارك أحد علماء الشيعة دخول القوات الانجليزية الى المدن المقدسة، ولكن السيد محمد كاظم اليزدى أفتى بفسق هؤلاء، وجاء فى فتواه : (الرجل الذى ارتكب هذا الفعل الشنيع فاسق فاجر لا يدفن فى مقابر المسلمين).[٢]

كانت النجف والكاظمية مركز الحركة الجهادية ضد الانجليز، وقد سجل الشيعة الذين ذاقوا الويلات من الحكم العثمانى، اكثر المواقف شجاعة فى الدفاع عن الدولة العثمانية ؛ الأمر الذى أثار دهشة الانجليز. ولكن هذه المواقف لم تجد من يقدّرها ويثمنها بعد تشكيل الدولة العراقية الجديدة، ولم تظهر مبادرة لتخليد ذكرى ابطال هذه المواقف. والسبب فى ذلك هو الدوافع القومية والطائفية التى كانت حريصة على إبقاء الشيعة على هامش الأحداث.

تأييد علماء النجف لمشاريع الوحدة الاسلامية

لا ينبغى الشك أن أحد المعالم الرئيسية للحركة السياسية فى النجف خلال العقود الأولى للقرن العشرين، هى تأييدها ومجاراتها للحركات الجهادية السنية فى شتى أرجاء العالم الاسلامى. وفى هذا السياق توجد الكثير من البيانات والفتاوى التى أطلقها علماء شيعة دون أن يكون الهاجس الأساس فيها التشيع،

---

(١) العلوى : ٦١-٦٤ .

(٢) الجبورى : السيد محمد كاظم اليزدى : ٦٤٥ .

حيث يظهر من هذه البيانات ان انتصار الاسلام ونبذ الهيمنة الغربية هو الهم الأول والأخير لأصحاب هذه الفتاوى والبيانات، وهذا التوجه يعكس انفتاح الذهنية الثقافية الشيعية فى تلك الاثناء، خاصة المدرسة النجفية.

وقد رحّب الشيخ رشيد رضا فى مجلة المنار بالفتوى التى أصدرها آية الله الخراسانى وآية الله المازندرانى، وعدّها أساساً لمشروع وحدة المسلمين (المنار، ١٤ (١٩١١)، ص ٧٧- ٧٨). وبعدها بفترة وجيزة هاجمت ايطاليا ليبيا، ما دعا علماء الشيعة مرة اخرى الى اصدار فتوى بوجوب الجهاد ضدّ المحتل الايطالى.

وسواء نجحت هذه الفتاوى فى التأثير خارج العراق أم لا، فإنها مكّنت علماء الشيعة من تحقيق خطوة متقدمة فى إنشاء جبهة دفاعية.[١]

وبعيد احتلال البصرة من قبل الانجليز عام ١٩١٤ م ارتفعت دعوات الجهاد من جميع المساجد فى العراق، وقد استثمرت السلطان العثمانية هذه الظاهرة ووظفتها لمصلحتها فى الصراع. وكان فى مقدمة علماء الشيعة الذين تجاوبوا مع هذا التوجه، الميرزا محمد تقى الشيرازى الحائرى و شيخ الشريعة ومصطفى الكاشاني ومحمد سعيد الحبوبى ومهدى الحيدرى ومحسن الحكيم.[٢]

إلا أن هذا التحرك لم يؤت ثماره، وتمكّنت بريطانيا من السيطرة على جميع التراب العراقى بحلول العام ١٩١٨ م.

لقد استمرت الدولة العثمانية بالتعاطى مع الشيعة على أساس استغلالى بحت،

(١) النقاش : ١١٠ .

(٢) المصدر نفسه : ١١٢ .

وظلّت الشريحة الشيعية فى المجتمع مصنفة على الدرجة الثانية. واستمر الوضع على هذا المنوال الى ان استقر الانجليز بشكل كامل وأسسوا دولة ملكية فى العراق ونصّبوا فيصل ابن الشريف حسين ملكاً، فيما يبدو أنه تنفيذ لمطلب تقدم به الشيعة.

المرحلة الثانية : الملكية

انطلقت ثورة العشرين العراقية بقيادة آية الله الميرزا محمد تقى الشيرازى بوجه الانجليز الذى كانوا يرومون سلب العراق استقلاله وتحويله الى مقطعة انجليزية ـ هندية.ورغم انكسار هذه الثورة الشيعية ـ بقياداتها وقواعدها الجماهيرية ـ إلا ان الانجليز تراجعوا عن مخططاتهم الأولى واكتفوا بالمجىء بحكومة ذات زعامة عربية تكون موالية لهم.

ويعتقد العلوى أن هدف البريطانيين هو (تهنيد) منطقة الخليج عبر إرسال اعداد غفيرة من الهنود الى جنوب العراق وتوطينهم هناك. غير ان انتفاضة مجتهدى الشيعة ويقظة عشائر حوض الفرات الاوسط والجنوب بدّدت أحلام الريطانيين وحافظت على عروبة العراق، حتى كان العراق أول دولة عربية تنال استقلالها الرسمى، وكان هذا إحدى ثمار ثورة العشرين المجيدة التى بدا فى الظاهر أنها لم تحقق أهدافها ولكنها حالت على أى حال دون الهدف البريطانى الكير.

وحين ارتفع العلم العربى فوق سارية مبنى حكومى فى كربلاء أنشد خليل عزمى الأبيات الآتية :

بشراک يا کربلاء قـومي انظـرى العلمـا علــى ربوعــک خفاقــاً ومبتــسما
وکفکفــى دمعــک الهطّــال وابتهجــى فإنّ بند بنـى قحطـان قـد حکمـا[١]

لقد أفتى علماء الشيعة أيام ثورة العشرين بالجهـاد ضـد المحتـل البريطـانى ودعوا الى مواجهة مخططاته الرامية الى استعمار العراق وجعله محميـة بريطانيـة على غرار ما حصل فى الهنـد. وكـان الهـدف المعلـن للعلمـاء بزعامـة الميـرزا الشيرازى هو تشكيل حكومة عربية يقودها ملک أو أمير مـن أحفـاد الـشريف حسين مع وجود مجلس شورى وطنى.

وجاء فى بعض المذكرات وصف (الحكومة الاسلامية) تعبيـراً عـن مـرادهم هذا. وكانت الوحدة بين الشيعة والسنة أحد الشعارات الرئيسية لهذه النهضة، وهو مطلب تم التأكيد عليه من قبل الشيعة على وجه الخصوص، وقد انعكـس ذلـک بوضوح فى الشعر السياسى الذى رافق تلک المرحلة، من ذلک :

لا تقـــــل جعفرية حنفية لا تـقـــــل شافعية زيدية
جمعتنا الشريعة الأحمدية وهى تأبى الوصاية الغربية [٢]

والقضية الجديرة الملاحظة هى أن ثورة العشرين حافظت على هويتها العربية رغم أن زعماءها كانوا من ذوى الأصول الايرانية، والـسرّ فـى ذلـک أن القـادة الميدانيين للثورة هم من الشخصيات العربية من وجهاء المـدن ورؤسـاء القبائـل العربية، كما أن ادبيات الثورة سجلت جميعاً باللغة العربية مضافاً الى أن مضامينها

(١) العلوى : ١٣٧ .
(٢) النقاش : ١٢٤ .

كانت تتناول قضايا ذات نزعة قومية وتتشبث بـــالأمالة العربية كمرجـع معنـوى للنهضة. وأورد حسن العلوى نماذج من شعر هــــذه الثـورة تتجلـى فيهـا هـذه المعانى.[١]

ومن الطريف جداً البرقية التى بعث بها الميرزا محمد تقى الشيرازى المعروف بالميرزا الثانى الى الملك فيصل فى الأيام الأولى لتأسـيس الدولـة العربيـة فـى العراق، حيث تحدثت هذه البرقية عن (الوحدة العربية) كمظهر من مظاهر المجـد والـعـظـمـة الاسـلاميـة، وحملها السيد محمد رضا الشيبيى مندوباً عن الميـرزا الى الملک.[٢]

وهناک عدد لا يحصى من البيانات الصادرة عن الميرزا محمد تقى الشيرازى وشيخ الشريعة الاصفهانى وعلماء آخرين تتناول جميعها موضوع وحدة العـراق واستقلاله عن هيمنة الأجنبى.

وبنهاية ثورة العشرين أقصى الشيعة عن الميدان السياسى لفتـرة طويلـة مـن الزمن، وذلک بعدما أدرک البريطانيون والقوى السنية التى هيمنت علـى الحكـم فى العراق ضرورة إضعاف العلماء الشيعة عبر قطع صلاتهم بايران.[٣]

وتشكلت الدولة العراقية الحديثة ونصّب فيصل ملكاً للعـراق ليبقـى العـراق تحت الانتداب البريطـانى حتـى عـام ١٩٣٢ م. ووضـعت بريطانيـا والحكومـة العراقية الموالية لها نصب عينيها قضية ابعاد المجتهدين الى ايران، أو على الأقـل

(١) العلوى : ١٣٠.
(٢) العلوى : ١١٤ .
(٣) النقاش : ١٢٧ .

الحدّ من فاعليتهم، ومن اساليب ذلک تحريض العشائر علی الحوزة من خلال اثارة النعرة القومية بين ابناء تلک العشائر.

والحاصل أن انكسار شوكة المجتهدين الشيعة فی هذه المعركة قد خلّف تأثيراً كبيراً علی مواقفهم السياسية تجلّی واضحاً فی المواقف التی اتخذوها حيال قضايا مشابهة نظير الهجوم الأمريكی علی العراق عام ٢٠٠٣ م.

وعوداً علی ذی بدء، فقد خططت الحكومة البريطانية لإجراء انتخابات فی العراق عام ١٩٢٢ م، وذلک من أجل اضفاء الشرعية علی التواجد البريطانی فی هذا البلد. ولكن هذا المخطط جوبه بفتوی اصدرها كل من المراجع الثلاثة فی العراق آنذاک : الأصفهانی والنائينی ومهدی الخالصی (م رمضان ١٣٤٣ ق فی مشهد)، ودعت الفتوی الی مقاطعة هذه الانتخابات واصفة اياها باللاشرعية ؛ الأمر الذی أدی إلی نفی هؤلاء المراجع الثلاثة الی ايران، وذلک سنة ١٩٢٣ م وبقرار من الملک فيصل ورئيس الوزراء عبد المحسن السعدون اللذين كانا يعتبران مراجع الشيعة (أجانب) فی حال ان الملک فيصل بذاته كان اجنبياً من أهل الحجاز !

بعد هذه المرحلة عمل الملک فيصل علی فسح المجال لعلماء الشيعة للدخول فی الميدان الحكومی، ومثال ذلک تعيين السيد هبة الدين الشهرستانی وزيراً للمعارف فی الحكومة العراقية، والذی استطاع بدوره تحقيق بعض الانجازات خال فترة توليه لهذه الحقيبة الوزارية، ومن ثم كانت له خدمات

جليلة في الحقل القضائي بعد توليه ادارة المحاكم الجعفرية.[١]

كما تم اسناد منصب رئاسة الحكومة الى السيد محمد الصدر لعدة شهور في سنة ١٩٤٨ م، وقبله أسند المنصب ذاته لفترة وجيزة ايضاً الى شخصية شيعية هو صالح جبر. وقبيل انهيار الحكم الملكي في العراق تولّى عبد الوهاب مرجان وهو شخصية شيعية ايضاً منصب رئيس الوزراء للأعوام ١٩٥٧ـ ١٩٥٨.[٢]

جدير ذكره ؛ انه عقب وفاة الملك فيصل في حزيران ١٩٣٣ اثر نوبة قلبية، تولى العرش مكانه ابنه الملك غازي والذي قتل في حادث سيارة سنة ١٩٣٩ م بسبب الثمالة، واصبح ولده فيصل الثاني ملكاً على العراق من بعده لكنه كان صبياً وظلّ العرش تحت وصاية خالد عبد الاله حتى عام ١٩٥٣ م حيث تولّى العرش بشكل رسمي لكنه لم يلبث طويلاً حتى قامت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ بقيادة عبد الكريم قاسم ووقعت مجزرة البيت الملكي التي قتل فيها جميع أفراد العائلة المالكة تقريباً.

ويعدّ هبة الدين الشهرستاني واحداً من اشهر الوزراء الشيعة ابان الحكم الملكي في العراق، وقد عرف عنه علاقاته الطيبة بايران، وعاش طويلاً بعد الوزارة وتردّد كثيراً على ايران. وتم استيزاره في عهد الملك فيصل الثاني لفترة وجيزة، لكنه ترك تأثيراً كبيراً على القطاع التربوي وطوّر المدارس في الكاظمية، وأصبحت الأخيرة مركزاً علمياً وثقافياً مرموقاً بفضل انتشار مجلة العلم وبناء

(١) الكاظمي ، محمد صالح ، ص ٤٥ .

(٢) بطاطو : ١\٢١٦ .

المكتبات العامة.

بيد أن المبدأ الذى ظلّ مهيمناً على معادلة الحكم فى العراق ايام العهد الملكى وما بعدها هو (أن الضرائب على الشيعة والمناصب للسنة)، وهو أمر أدركه الملك فيصل ـ كما يقول بطاطو ـ وحاول معالجته.[(١)]

المرجعية الشيعية

السيد ابو الحسن الاصفهانى (م١٣٦٦\١٩٤٧) :

أصبح هو المرجع المطلق فى حوزة النجف، وهناك مراجع آخرون فى زمانه، ولكنهم من الدرجة الثانية أو قل الجيل الثانى من المراجع الذين لم يتسنَ لأىّ واحد منهم أن يمسك بمقاليد المرجعية على نحو مطلق وتزامنت مرجعية هؤلاء مع سلطنة رضا شاه بهلوى فى ايران، وهم اربعة :

ـ الشيخ عبد الكريم الحائرى اليزدى (م ١٣٥٥ـ ١٩٣٦م).

ـ الشيخ محمد حسين كمبانى الاصفهانى (م ١٣٦١ـ ١٩٤٢).

ـ الميرزا محمد حسين النائينى (م ١٣٥٥ـ ١٩٣٦).

ـ الآغا ضياء الدين العراقى (م ١٣٦١ـ١٩٤٢).

وكان السيد ابو الحسن الاصفهانى هو المرجع الأعلى فى هذه المرحلة وان شاطره فى المرجعيّة الميرزا النائينى فى ايام حياة الأخير.

ورغم كون السيد ابو الحسن اصفهانياً إلاّ انه أظهر مقدرة فى السيطرة على

---

(١) بطاطو : ١\٤٤ .

شؤون الحوزة فى النجف الاشرف، وقد جمع بين اهتمامه بالسياسة ومناصرته للحركة الدستورية المشروطة وبين نزعته الاصلاحية فيما يرتبط بالشؤون الدينية، ومعروف عنه تأييده لفتوى السيد محسن الأمين فى تحريم ضرب السلاسل والتطبير من بين الشعائر الحسينية وأجاز الاصفهانى صرف سهم الإمام لدعم نشرة (الاسلام) التى كانت تصدر فى شيراز.

يذكر ان الميرزا الثانى كان يرجع مقلّديه فى المسائل الاحتياطية الى السيد الاصفهانى مما أدى ازدهار مرجعية الأخير.

لقد كان النائينى والأصفهانى خليفتى الميرزا محمد تقى الشيرازى وشيخ الشريعة، وقد ورثوا عنهما نهضتين فاشلتين فى العراق (١٩١٤ـ١٩٢٠) ولذا كانا يتحركان بحذر اكبر. وقد اصطدم هذان العلمان ومعهما آية الله الشيخ مهدى الخالصى بالحكومة ايام الملك فيصل وقاطع الثلاثة انتخابات سنة ١٩٢٣ م. وإثر ذلك تم نفى الشيخ الخالصى الى ايران، وبعده بمدة نفى النائينى والاصفهانى ولكن بلياقة اكثر دون أن يصحب ذلك ردّ فعل من قبل الجماهير العراقية آنذاك. وقد التقى العلماء الثلاثة ـ (رضا خان) ودار معه حديث حول إنهاء حكم سلالة القاجاريين. فى غضون ذلك كانت العلاقة بين الحوزة والدولة فى ايران تشهد توتراً كبيراً مردّه الى ظهور الدولة الحديثة فى العراق وتربع رضا خان على سدة الحكم فى ايران. كل ذلك يأتى فى سياق مساعى البريطانيين لإيجاد حكومات قوية فى المنطقة لمواجهة المدّ الشيوعى. كانت النظرة السياسية التى تحملها الحكومات الايرانية حيال المراجع فى النجف، نظرة ايجابية ساندة

وذلك الى ما قبل استحواذ (رضا خان) على السلطة في ايران ورفعه لواء العلمانية، والسبب في ذلك ان هؤلاء المراجع كانوا إيرانيين في الغالب، ويمثلون من الناحية السياسية أحد مرتكزات التأثير في الواقع السياسي العراقي. وكانت ايران اشترطت على الحكومة العراقية ـ لأجل رفع مستوى التمثيل الدبلوماسي ـ ان تلتزم الأخيرة باحترام مراجع التقليد الشيعة وأن يكون أيٌّ تغيير تقترحه الحكومة العراقية في وضع العتبات المقدسة منوطاً موافقة المراجع الشيعة بالاجماع.[١]

بيد أن هذا الموقف تبدّل بعد عام ١٩٢٧ م. ان سياسة رضا خان في مرحلة ما قبل الملوكية قامت على التقرب من علماء الشيعة في محاولة للحدّ من نفوذهم وتأثيرهم على مجرى الأحداث السياسية في ايران، ومنها على وجه التحديد إنهاء هيمنة القاجاريين على الحكم.

وفي هذا المقطع الزمني يمكن تصور مرحلتين ؛ حرص رضا خان في الاولى فهما على توطيد صلاته بعلماء الدين ومراجع التقليد، وقد استطاع توظيف هذه الصلات في تحقيق مآربه الذاتية في فترة تواجد كل من النائيني والاصفهاني في ايران، وكان يتمتع بشخصية انتهازية، وأضفى على نفسه مسوح الايمان والتدين بحيث كان مراجع النجف من أوائل المهنئين له بعد انقلابه على بني قاجار.[٢]

استمر هذا الموقف الطيب من قبل مراجع النجف تجاه (رضا خان) حتى بعد

---

(١) كوهستاني نجاد : ٤٣٣ .

(٢) منظور الاجداد : ١٠٠ .

اتخاذه لبعض الخطوات المثيرة للجدل والسخط الشعبى فى الداخل الايرانى كإقرار قانون الخدمة الإلزامية، حيث امتنع علماء النجف عن اتخاذ موقف مناوئ للشاه بشكل صريح.[١]

وقد حملت البرقية التى بعث بها النائينى الى الشاه لهجة نصح وعتاب حيال بعض الاجراءات التى اعتبرت منافية للدين وطلب منه ان يسخّر سلطته (المباركة) لحفظ البلاد.[٢]

ويعود هذا التبدل فى النهج الى زمان فشل الحركة المشروطة فى ايران ودخول رجال الدين فى موقف حرج، ما أدى الى بزوغ نجم المرجعية فى العتبات المقدسة فى العراق والتى هى امتداد لمرجعية الميرزا وآخرين فى سامراء والنجف. وهنا برزت مشكلتان، اولاهما ان السيد ابا الحسن الاصفهانى لم يعد ميّالاً للتدخل فى الشأن السياسى الايرانى، والأخرى ان المسافة الشاسعة بين البلدين شكلت عائقاً دون وصول اخبار الجانب الايرانى بسرعة، وبالتالى تأتى ردود الأفعال متأخرة بعض الشيء.

ويقال إنه فى حادثة هجرة علماء اصفهان بزعامة الحاج الآغا نور الله الى قم احتجاجاً على بعض اجراءات الشاه، صرّح آية الله الأصفهانى بأن السادة العلماء فى قم يتدخلون فى الشؤون السياسية للدولة، وهذا ما لا يليق بوظيفة رجل الدين.[٣]

---

(١) المصدر نفسه : ١٣٤ .

(٢) المصدر نفسه : ٦٢ .

(٣) منظور الاجداد : ١٣٤ .

بعد ذلک کثرت المضايقات الحکومية ضد الشعائر الدينية عام ١٩٢٧ م على خلفية الترويج لفکرة التجديد، وخاصة بعد حادثة المرحوم البافقی فی قم وقيام رضا خان بضربه شخصياً، بدأت الأنباء تتوافد على النجف. وفی تقرير بعث به (محمود أرفع ويس) القنصل الإيرانی فی النجف الی طهران تناول فيه مجريات لقاء دار بينه وبين السيّد الاصفهانی، ذکر أن الأخير أشار الی تقارير تصله من ايران حول مضايقات السلطة لرجال الدين ومحاربتها للمظاهر الدينية.[١]

مع ذلک کان ردّ فعل هجرة العلماء من اصفهان الی قم محدوداً فی النجف، والظاهر أن رجال الدين الموالين للحکومة الايرانية کانوا يبذلون قصاری جهودهم لإحباط أی محاولة للتأثير على مراجع النجف وحثّهم على اتخاذ موقف إزاء الحکومة الايرانية.

وعام ١٩٢٨ م، اشتدت المضايقات الدينية وأقدمت السلطة على نفی بعض علماء تبريز، وعلى أثر ذلک تشکلت فی النجف رابطة من الشخصيات الايرانية بزعامة آية الله النائينی طالبت باعادة علماء تبريز من قضاهم ورفع القيود التی وضعتها السلطات حيال الزيّ الديني. وقد وردت هذه الاحتجاجات فی مذکرة أرسلتها القنصلية الايرانية فی النجف.[٢]

من ناحية أخری، تسببت السياسات النقدية التی اتبعتها حکومة رضا خان فی هذه المرحلة بمزيد من المعاناة لعلماء النجف الذی کانوا يعتمدون على

---

(١) منظور الاجداد : ١٢٣-١٢٥ .

(٢) کوهستانی نجاد : ١٧٧ .

وصول مبالغ الحقوق الشرعية. وذات مرة أبلـغ مبعـوث رضـا خـان الـسيد أبـا الحسن الاصفهانى بأن حكومة الشاه لا تمانع تحويـل الأمـوال مـن ايـران الـى النجف عبر وكلاء السيد هناك، لكن شريطة أن تتعرف علـى الأشـخاص الـذين يستفيدون من هذه المبالغ إلا ان السيد الاصفهانى رفض هذا الطلب بشدة.(١)

علاوة على ذلک فإن السياسة المشار اليها قلّصت من عـدد الـزوار وتحـول الكثير منهم الى الطرق غير القانونية فى السفر الى العراق ؛ الأمـر الـذى انعكـس سلباً على العلاقة بين البلدين. ان إبقاء الأبواب موصدة بوجه الزائرين الايرانيين، كان يحصل احياناً تحت غطاء الخشية من الاجـراءات التعـسفية لرجـال الأمـن العراقيين.(٢)

وهذا واقع لم يكن بعيداً عن الحقيقة جداً، فالمـسؤولون الأمنيـون العراقيـون كثّفوا تدريجياً من إجراءاتهم بحق الايرانيين وبخاصة رجال الـدين مـنهم. هـذا التطور الدراماتيكى فى مجريات الأحداث ولّـد لـدى المراجـع الايـرانيين فـى النجف شعوراً بأن الدولة الايرانية هى الملاذ الوحيد الذى يمكن أن يلجأوا اليـه فى مثل هذه الظروف ؛ الأمر الذى أدركه رجال السلطة الايرانيون واستثمروه فى الحدّ من الفعاليات المناهضة للسلطة لدى بعض رجال الدين الايـرانيين، وذلـک عبر ترويج القناعة أعلاه، وتوظيفها ضد تحرک علماء اصفهان وهجرتهم الى قـم احتجاجاً على السلطة فى طهران.(٣)

---

(١) منظور الاجداد : ١٠٤ .

(٢) منظور الاجداد : ١٣١ .

(٣) منظور الاجداد : ١٣٨ .

وحتى ذلک الحين، کان التصور السائد بين صفوف رجال الدين الشيعة ان عظمة التشيع من عظمة ايران وعظمة إيران هى من عظمة السلطنة !

وفى هذا الصدد کتب آية الله الاصفهانى يقول :

(ان عظمة مقام السلطنة العظمى هى أمل کل مؤمن متدين، وذلک ان استقلال الدولة الإسلامية وحفظ الاسلام وصيانة مصلحة المسلمين تتأتى من ذلک).[١]

لقد کان الشاه بصدد تدبير مکيدة حتى تسنى له عام ١٩٢٩ ان يبعث بخواتم من الماس لکل من الاصفهانى والنائينى والميرزا مهدى نجل الآخوند الخراسانى.[٢]

فى هذا العام کان آية الله الاصفانى والميرزا النائينى يشتکيان من عدم وصول الأموال من ايران وان الأموال التى تصل اليهم هى فقط من افغانستان وزنجبار، وبالتالى کانوا يستفيدون من الأموال لدعم الفقراء فى ايران، اما الآن فإن ما فيأيديهم من اموال لا يغطى النفقات اللازمة لادارة الحوزة فيالنجف.[٣]

ومع تمادى الحکومة الايرانية فى توجهاتها العلمانية أخذت العلاقة بين النجف وايران بالفتور يوماً بعد آخر. وهى حالة أضرّت کثيراً بالطرفين، ففقدت الحکومة الايرانية سنداً مهماً لها فى مجال التواصل مع العراق، وفى مقابل ذلک سحبت حکومة رضا خان يدها من الوضع فى العراق، وتخلّت عن دعم علماء

(١) منظور الاجداد : ١٥٧ .

(٢) منظور الاجداد : ١٥٩ .

(٣) منظور الاجداد : ١٦١ .

النجف امام الضغوط المتوقعة من الحكومة العراقية ضدّهم. فی هذه الأثناء، تأججت المشاعر القومية بين العرب والعجم أو بين العراقيين والإيرانيين. وفی سنة ١٩٢٧ م رفض القنصل الايرانی تدخّل أحد رجال الدين بأن الذی حمله على ذلک هو حسّه بالوظيفية، أجابه القنصل :

(يكفيک النجف الأشرف كمسؤولية دينية واسلامية، أما ايرن ففيها الكثيرون ممن هم أجدر بهذه المسؤولية هناک).[١]

بعد رحيل الاصفهانی، تولّى آية الله القمی مقام المرجعية لفترة وجيزة لا تزيد على ثلاثة أشهر. كان القمی مستوطناً فی العراق وسافر الى ايران عام ١٩٤٣ م وحاول ان يتدخل فی بعض القضايا الايرانية بخصوص قضايا عدة كالحجاب والأوقاف، وتمكن من تحقيق نتائج فی هذا السياق. ولم يكن السيد الاصفهانی ليوافق على هذا المنحى كما قيل.[٢]

فی ظلّ مرجعية الاصفهانی، برز مرجع عربی من آل كاشف الغطاء وهو الشيخ محمد حسين (م ١٣٧٣ ق) وكان يحظى بشهرة علمية فی النجف ويتمتع بعقلية متفتحة وذات نزعة تجديدية بالاضافة الى مواهبة الأدبية والشعرية. وكان لذلک انعكاساته الخاصة حتى على مستوى ايران حيث ترجمت بعض مؤلفاته الى الفارسية.

رغم ذلک، فقد خطف السيد ابو الحسن الاصفهانی قصب السبق والريادة

---

(١) منظور الاجداد : ١٢٨ .

(٢) منظور الاجداد : ٢٩٤ـ ٢٩٦ .

بسبب مواجهاته المختلفة بحيث فرض نفسه على الواقع الحوزوى فى منطقة عربية ومع وجود مرجع عربى.

وقد اهتم أحد المؤرخين بالمنحى الخاص لدى السيد الاصفهانى المتمثل ببذل عناية خاصة بقضايا الارشاد الدينى فى العراق، وعلى الخصوص فى المنطقة الشمالية من هذا البلد حيث يتمركز أهل السنة. ويشير محمد صالح الكاظمى الى أنشطة الاصفهانى قائلاً : ان المنطقة الشمالية كانت الى ذلك الحين تفتقر الى البعثات الدينية الإرشادية، لكن الاصفهانى أرسل اليها الكثير من الوعاظ والمرشدين لهداية الناس من الظلمات الى النور.[١]

انتقال المرجعية الى ايران

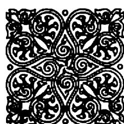
عقب وفاة آية الله السيد ابى الحسن الاصفهانى انحسرت المكانة المطلقة لمرجعية فى العتبات المقدسة فى العراق، وبدأت مرجعيات اخرى بالظهور فى اماكن مثل قم المقدسة التى شهدت سطوع نجم المرجعية وآية الله السيد البروجردى (م١٣٨٠ق ـ ١٩٦١ م). ومعها شدّت المرجعية رحالها الى ايران، بحيث انعكس مسار التأثير، فبات للسيد البروجردى تأثير على الوضع فى النجف ولو على نحو محدود من قبيل تأسيس مدرسة او تقرير راتب شهرى للطلبة. اما من الناحية السياسية فلم يكن هناك تأثير ملحوظ للمرجعية المستقرة فى ايران على مسارات الأحداث فى العراق. وبشكل عام يمكن القول أن

(١) الكاظمى ، محمد صالح : ص ١٧ .

مرجعية النجف كان لها تأثير جاد فى التحولات السياسية والاجتماعية فى ايران، والعكس غير موجود على مستوىً واضح حتى فى المراحل التاريخية التى تحولت المرجعية الاصلية فيها الى الجانب الايرانى.

كان للمرحوم البروجردى اعتناء خاص بحوزة النجف، وكان يخصص على طبق العادة مرتباً شهرياً لطلاب العلوم الدينية فيها كما قام بتشييد مدرسة. وجرياً على المعتاد فى قم، اشترط البروجردى على طالب العلم أن يؤدى امتحاناً لكى يتمتع بالراتب، لكن هذا الأمر جوبه باعتراض أحد العلماء البارزين فى النجف وهو آية الله الاصطهباناتى فألغيت الفكرة.

الفصل الخامس



المرجعية في العراق وتحديات العصر

عودة المرجعية الى العراق : آية الله الحكيم

في هذا المقطع الزمني، تعددت المرجعيات، فكان آية الله السيد محمود الشاهرودي (م١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م) وآية الله السيد أبو القاسم الخوئي في العراق، وآية الله روح الله الخميني (م١٩٨٩م) وآية الله السيد محمد رضا الكلبايكاني وآية الله السيد محمد كاظم شريعتمداري في ايران. ولكن مرجعية آية الله الحكيم فرضت نفسها على الجميع، وذلك بسبب اقبال الناس عليها ولما تمثله النجف من عمق تاريخي على مستوى المرجعية. وهذه هي المرة الأولى في التاريخ المعاصر التي يتربع فيها مرجع عربي على مسند المرجعية العليا للشيعة. ولا تقتصر اهمية هذه المرحلة التاريخية على تولّي آية الله الحكيم لمقام المرجعية فيها، بل ان ما يستحق الدراسة والتحليل هو عودة الطابع السياسي لحوزة النجف وتأثيرها في مجريات الوقائع والاحداث.

أ ـ المشاركة الفاعلة للشيعة العرب في حوزة النجف

عموماً لا ينسجم مبدأ التحليل العنصري والقومي مع الأساس الديني والعلمي

لقضايا المرجعية. والذين يعيشون أجواء الحوزات العلمية من الداخل يدركون ان طبيعة المرجعية سواء كانت فى قم او فى النجف تسمو على الاعتبارات القومية والعنصرية. مع ذلک يحدث أحياناً أن تتدخل عوامل خارجية فيكون لها تأثير ولو محدود على قضايا المرجعية فتلقى عليها بظلال قومية ومناطقية. وفى غضون المائة عام الماضية ظلّت المرجعية عصيّة عن التأثر بمثل هذه الاعتبارات، واذا كانت المرجعية قد أرخت زمامها لآية الله الحكيم، فمن المؤكد أن أحد أهم الأسباب الداعية الى ذلک هو مكانته العلمية المرموقة ومؤلفاته القيمة وبالذات كتابه الشهير (مستمسک العروة الوثقى) الذى أمر بقيمته العلمية الوسط العلمى الحوزوى عربياً كان أم أعجمياً. وهذا القضية تنطبق على آية الله السيد الخوئى الذى يقرّ الجميع بتفوقه العلمى.

ولكننا لا نغفل حقيقة ان النجف فى تلک الأيام كانت تشكل خليطاً من الطلاب العرب والأعاجم، ولما كانت تلک المرحلة الزمنية شهدت الكثير من التوتر القومى والوطنى، كان من الطبيعى ان يتأثر الوسط الحوزوى بهذه التخندقات، كاستجابة غزيزية لتحولات البيئة السياسية والاجتماعية العامة. ومن هذه الزاوية سوف نواصل بحث وتحليل هذه المسألة.

فلا شک ان الوضع السائد فى حوزة النجف هو هيمنة الطلاب الايرانيين، لا بمعنى ان العرب فيها غير حاضرين على المستويات العليا، كيف وقد أشرنا فيما سبق الى وجود الكثير من العلماء من ذوى الاصول العربية خلال القرن الثالث عشر الهجرى. وقد تضاعفت أعداد هؤلاء فى القرن الرابع عشر، حتى ان أبرز

تلاميذ النائيني كانوا من العرب، ناهيک عن آل كاشف الغطاء والكثير من الكتاب العرب العراقيين مثل أسد حيدر ومحمد رضا الشبيبي والشيخ محمد السماوي وآخرين. ولعل اكبر شاهد على ذلک هو قدرة النجف على ابداع مدرسة أدبية خاصة فی مجال الشعر أفرزت شعراء كباراً يأتی فی مقدمتهم شاعر العرب الأكبر محمد مهدی الجواهری. كما ان الثقافة العربية فرضت نفسها على أجواء النجف العلمية والأدبية فی هذه المرحلة، كما يبدو ذلک جلياً فی كتب السيرة التی صدرت فی تلک الأيام نظير كتاب (هكذا عرفتهم) لجعفر الخليلی وكتاب (شعراء الغریّ) للخاقانی.

ان عروبة الحوزة، أو بتعبير أدق الحضور العربی والعراقی فی المعترک العلمی والأدبی فيها قد شقّ طريقه منذ أيام زعامة المرحوم الاصفهانی للحوزة النجفية. وأحد الأمثلة على دعمه لهكذا توجه، هو تأييده القویّ لمشروع تأسيس (جمعية منتدى النشر) برئاسة الشيخ محمد رضا المظفر، وحرصه البالغ على استمرار المشروع.[١]

ولا شک بأن هذه الجمعية شكلت ـ بالقائمين عليها وبنوع اهتماماتها ـ[٢] أحد أبرز المراكز العلمية والثقافية التی أسهمت فی إضفاء طابع عربی على الحوزة فی النجف، علماً أن رئيسها المظفر كان أحد أعضاء المجمع العلمی العراقی فی بغداد.

---

(١) الخليلی : ٢٣\٢ .

(٢) الخليلی : ٢٥\٢ .

إلى ذلک، فإن ترشّح آية الله الحكيم كمرجـع عربـى، ومـساعيه لاجتـذاب الطلاب العرب الى الحوزة غيّر معادلة التوازن فى النجف لصالح العرب وحدّ مـن الهيمنة الايرانية عليها، مما أسـهم فـى تـشكيل انطبـاع جديـد عـن المرجعيـة وهويتها. ان وفاة آية الله النائينى وهو مرجع ايرانى وحرص بعض وجهاء النجف على ترشيح آية الله الحكيم دليل واضح على وجود توجه لتعريب المرجعية فـى النجف. عدا ذلک، فإن الحوزة لم تكن تخلو قبل ذلک مـن العلمـاء أو المراجـع العرب، لكن وجود الايرانيين يغطى عليهم.

أما البعد الآخر لعروبة المرجعية، فهو أنـشطة آيـة الله الحكـيم فـى المجـال السياسى وتواصله مع العشائر العراقية. ان الاستعانة بالعـشائر فـى التـأثير علـى الواقع السياسى فى العراق، كان له دور رئيس فـى ظهـور الجانـب العربـى مـن التشيع فى العراق، وذلک بعد عقود من انطلاق ثورة العشرين.

مع ذلک، لا ينبغى تجاهل حقيقة أن آية الله الحكيم كان مدعوماً مـن لفيـف من الطلبة الايرانيين، وبالمقابل كانت بعض الأسر العربية من البيوتات العلمية فى النجف الأشرف لا تنسجم معه فى المواقف والرؤى، فيما سـعت بعـض البيـوت العلمية فى النجف الى اجتذاب الطلبة العرب، فى اجراء يمكن عدّه تضعيفاً لآيـة الله الحكيم الذى أبقى على الايرانيين فى ادارة الحـوزة. ولكـن بنظـرة اجماليـة كانت الحوزة فى النجف تتحرک باتجاه الاكتساء بوشاح عربى.

ثمة تفسير آخر للطابع العروبى الذى طغى نسبياً على هوية النجـف آنـذاک، وذلک أن أعداداً قليلة من العرب المـشتغلين بالزراعـة وتربيـة المواشـى كـانوا

يقصدون النجف بغية تحصيل العلم وذلك بسبب عدم وجود راتب شهري للطلبة يعينهم على تدبير المعاش، ولكن تثبيت الراتب إبان مرجعية آية الله البروجـردي أدى الى تحسين الوضع المعيشي للطلاب ومن ثم تزايد إقبـال الطـلاب العـرب على الدراسة الحوزوية في النجف. والواقع، ان تغير هوية النجف من أعجمية الى عربية، لم يحصل بين عشية وضحاها، بل هي عملية تدريجية بطيئة للغاية، ذلك ان معظم الدروس الحوزوية كانت تتداول في حلقات تحكمهـا اللغـة الفارسـية، حتى ان الكثير من الطلبة العرب كانوا مضطرين الى تعلّم الفارسية لكي يتاح لهم الاشتراك في تلك الحلقات. ومن هنا فأن النفس الايراني ظلّ قائماً بقوة حتـى في زمن مرجعية آية الله الحكيم الذي كان شخصية عربية، ولكن معظـم مـوظفي مكتبه كانوا يحملون ألقاباً ايرانية. كما ان العديد من وكلائه كانوا من الايـرانيين، حتى قيل أن زهاء ألف شخص ايراني حصلوا على إجـازات ووكـالات شـرعية من السيد الحكيم.

ويبقى هذا السؤال ماثلاً نصب أعين الباحثين : لماذا أصبحت حوزة النجـف ذات طابع ايراني الى هذا الحدّ ؟ والجواب يرتكز على عدة نقاط :

الأولى : انه على مدى فترة طويلة من الزمن هيمن الايرانيون على المرجعية في النجف منذ زمان الشيخ الأنصاري مما فتح الأبـواب كلّهـا بوجـه الايـرانيين لتعزيز مكانتهم فيها.

الثانية : ان الايرانيين كـانوا لا يـأتون الـى النجـف إلا لأغـراض الدراسـة والتحصيل، وهم بالتالي أكثر من العرب الذين يقصدون أو يتواجدون في النجـف

لأغراض شتّى.

والنقطة الثالثة : ان العراقيين ـ بطبعهم ـ أقل ميلاً واهتماماً بموضوع الدراسة والتحصيل.

مع هذا كلّه، برز فى النجف وفى هذه المرحلة ؛ بالذات علماء كبار مثل الشيخ حسين الحلى الذى يعدّ من أبرز تلامذة النائينى وكان يلقى دروسه أحياناً باللغة الفارسية، والسرّ فى ذلك أنه تلقى دروسه بالفارسية، فيسهل عليه إلقاؤها بنفس اللغة، والأهم من ذلك أن العديد من طلابه كانوا ايرانيين، ومن بينهم آية الله السيستانى والشيخ حسن سعيد الطهرانى والسيد مهدى الخلخالى.

فى غضون ذلك، كان السيد الخوئى ـ وهو تركى الأصل ـ يلقى دروسه بالعربية، فى الوقت الذى كان آية الله السيستانى يدرس طلابه باللغة الفارسية التى عدل عنها الى العربية قبل تولى المرجعية بفترة.

يقال أنّ الطلبة الأفغان كانوا يلقون معاملة غير طيبة فى حوزة النجف ويعطى لهم نصف الراتب الشهرى الذى يعطى للطلبة العرب، ومن المعروف ان آية الله الخمينى عمل على إصلاح هذا الوضع وأمر بالمساواة فى دفع الحقوق الشرعية للطلبة الايرانيين والأفغان.[1] قبل ذلك كان الايرانيون متهمين بالتعامل الفوقى مع غير الايرانيين.

وعلى كل حال، فإن اتصاف الحوزة النجفية بالطابع العربى كان أمراً مشهوداً أيام مرجعية آية الله الحكيم. ويؤيد ذلك فعاليات حزب الدعوة الذى ضمّ بين

---

(١) السمامى ، عشرون سنة تاريخ ....:٤٧٥ .

جنبيه أيضاً طلاباً من شيعة السعودية ولبنان. ولقد أمر آية الله الحكيم بفتح الدورات العلمية عام ١٩٦٧ م، وكان جميع طلاب الدورة الأولى لذلك العام من العراقيين. أطلق على هذه الدورات اسم (دورة العلوم الدينية للإمام الحكيم) ومقرّها في مسجد الهندي.[١]

ب ـ السياسة الطائفية في العراق المعاصر

لدى الحديث عن الطائفية في العراق يقفز الى الأذهان مباشرة موضع الخلاف بين السنة والشيعة في وسط العراق وجنوبه، بينما يأخذ هذا الحديث بعداً آخر في مناطق شمال العراق حيث الحديث عن الاكراد والمسيحيين وباقي الطوائف.

يعود النزاع بين السنة والشيعة في العراق الى أيام الدولة العثمانية، حيث عملت الأخيرة على كبح جماح التشيع في العراق. ولكن هذه السياسة استمرت بل تفاقمت أيام العهد الملكي في العراق.

معروف ان عبد الكريم قاسم تزعم سنة ١٩٥٨ م ثورة ضد الحكم الملكي بمعية مجموعة من زملائه الضباط، وعد فترة نشب خلاف بينه وبين رفيقه في الثورة عبد السلام عارف حول موضوع الوحدة مع مصر، فقام الأول بعزل الثاني وتجميد دوره، وخلال الأعوام اللاحقة قويت شوكة الشيوعيين لكنهم مع ذلك لم يتمكنوا من السيطرة على الميدان السياسي.

في غضون ذلك اشتبک عبد الكريم قاسم مع الأكراد وتحولت الحركة الكردية بزعامة الملا مصطفى البارزاني الى عنصر أساس في المعادلة السياسية

---

(١) شبر ، حسن : ٢\٥٤ .

العراقية. وقد تحالف البعثيون وبعض القوى الاخرى ضد عبد الكريم قاسم، وبدأ هؤلاء بالتقرب من عارف.

قلنا ان الشيوعيين اكتسبوا خلال هذه الفترة قدرة كبيرة، لكنه عجزوا عن التحكم بأحداث الساحة العراقية نتيجة تمسّک القوى السنية العربية بمقاليد الأمور الاساسية من مناصب عليا في الجيش والدولة والمجتمع. وكان الأمين العام للحزب الشيوعى العراقى حينها شخص يدعى عادل سلام وهو من أهالى النجف، وينتمى الى اسرة من السادة واسمه الحقيقى سيد حسين الرضوى. وهذا الأمر أدى الى نوع من التقارب بين الشيعى والشيوعى حتى ان بعض الشيعة اعدموا أو قتلوا بتهمة الشيوعية !

من ناحية أخرى، فإن كون والدة عبد الكريم قاسم سيدة شيعية، أوجد نوعاً من التعاطف بين قاسم والشيعة كان من مظاهره فسح المجال ـ ولو جزئياً ـ بوجه الشيعة لدخول المؤسسة العسكرية العراقية التى كانت حتى ذلک الحين حكراً على السنة فقط.

لكن عبد السلام عارف ركب الموجة التى أوجدها البعثيون ضد قاسم وتمكنوا من الانقلاب عليه وقتله. ومع نشوب خلافات بين البعثيين انفسهم استطاع عارف توظيف هذه الأمور لكى تستتبّ له السلطة فى العراق. لكنه مع اختلافه مع البعثيين اصطدم بحوزة النجف وأثار مشاكل مع الأكراد بالإضافة الى علاقاته المتوترة مع كل من مصر وسوريا. ولم يقف عند هذا الحد، بل عمل على تأزيم علاقته بايران أيضاً، وكانت المرة الأولى التى تطلق فيها الحكومة العراقية

اسم الخليج العربى على الخليج الفارسى.[1]

وقبل ذلک كان قاسم أثار أزمة مع الكويت بدعوى ان الكويت جزء لا يتجزأ من العراق، مما ساهم فى تأزيم علاقات العراق مع محيطه الاقليمى.

ومهما يكن من أمر، فإن انقلاب عام ١٩٥٨ م كان فى طريقه لإيجاد ثورة فى كل مرافق الحياة السياسية والاجتماعية فى العراق. من ذلک ان شرائح عديدة من الطبقات الاجتماعية المسحوقة برزت لها أصوات تطالب بحقوقها، مما مهّد لظهور بعض النزاعات القومية والقبلية والطائفية.

ويمكن القول انه فى الفترة التى أعقبت الاطاحة بحكم عبد الكريم قاسم، كان البعثيون ومن سايرهم من القوميين هم القوى المؤثرة فى الساحة بشكل مباشر أو غير مباشر، لأن ما سواهم من قوى ـ كالشيوعيين مثلاً ـ لم يمتلكوا القدرة الكافية للتأثير على مجريات الأحداث. والواقع ان حزب البعث أخذت قوته بالتنامي بهدوء، وكأن القدر كتب له أن يكون صانع الأحداث للعقود الآتية.

ويعتبر حزب البعث العراقى فرعاً من حزب البعث السورى، دخل العراق للمرة الاولى سنة ١٩٤٩ م وذلک عن طريق الطلبة السوريين البعثيين الذين كانوا يدرسون فى الجامعات العراقية.

ولم يلبث هذا التشكيل الجديد أن يعلن عن وجوده القوى بعد مرور ثلاث سنوات فقط، وبدأت خلاياه تنشط فى الجامعات وداخل المؤسسة العسكرية. وكانت قيادته آنذاک بيد فؤاد الركابى (شيعى) حتى عام ١٩٥٩ م حيث دبّر

---

(١) فب مار : ٢٧٦ .

الحزب محاولة اغتيال لعبد الكريم قاسم لم تحقق مبتغاها ما أدّى الى هرب العديد من أعضاء الحزب أو زجّهم في السجن. وحتى ذلك الوقت كان نسيج الحزب متألفاً من مزيج من الشيعة والسنة، وكان التوجّه العام للحزب هو التوجّه القومي العربي المطعّم بميول اشتراكية.

عام ١٩٦٣ دبّر البعثيون محاولة انقلابية أخرى ضد الحكم القاسمي، ولكن الحظ ابتسم لهم هذه المرة فأسقطوا حكومة قاسم وقتلوا الرجل، وهيمنوا على مقاليد السلطة ولو بشكل مؤقت حيث عاد عبد السلام عارف لينتزع منهم السلطة وبقي فيها حتى قتل عام ١٩٦٦ في حادث مروحية، وخلفه أخوه عبد الرحمن عارف الذي حكم العراق سنتين انتهت بانقلاب البعثيين مرة أخرى وحصولهم على السلطة في ١٧ تموز ١٩٦٨ م.

يقولون ان عبد السلام عارف هو أول من أثار الموضوع الطائفي بشكل شبه علني، اذ ينقل عنه قوله ان نجاح الثورة باستئصال ثلاث فرق : الشيعة والكرد والمسيحيين ! وكان يرى ان الدولة الجديدة في العراق يجب ان تكون بيد السنة العرب.[١]

في تلك الأيام، كتب آية الله الخميني رسالة من النجف إلى آية الله الميلاني في إيران يصف فيها الأوضاع في العراق ويقول: مما يوجب القلق هذه الأيام ما صدر عن عارف من رغبته بإعادة أمجاد الأمويين الأمر الذي أثار لغطاً بين السنة والشيعة في العراق، فيما يبدو أن هناك

---

(١) فرهاد ابراهيم، الطائفية والسياسة في العالم العربي، ٢٩٣.

مخططاً لزرع بذور الفتنة والخلاف.[1]

ومنذ ذلک الحين، أخذت تتردد على أسماع الناس مصطلحات مثل (الشعوبية) و(الفارسية) مقرونة بالشيعة والتشيع، وبالتزامن مع مساعي عبد السلام عارف في إثارة الفتنة الطائفية في العراق، والتي واجهت مقاومة من لدن علماء الشيعة وفي مقدمتهم آية الله الحكيم الذي اتخذ إجراءات سياسية مهمة لمجابهة هذا التوجه العارفيّ الخطير.[2]

عام ۱۹۶۴ م وانطلاقاً من رؤيته الطائفية والعنصرية ، شنً عبد السلام عارف أولى حملاته على الأكراد، وقام بتنظيم مؤتمر لعلماء السنة في بغداد حضره شيخ الأزهر لكي ينتزع منهم فتوى بقتال الأكراد. وبحسب بعض الوثائق الخاصة بالسافاک الإيراني فإن بعض المسؤولين العراقيين أجروا اتصالات بآية الله الشاهرودي وسائر العلماء كالسيد محمد باقر الصدر والسيد الخميني يطالبونهم فيها بإصدار فتاوى تجيز قتال الأكراد بدعوى أنهم غير مسلمين! وقد امتنع العلماء عن إصدار فتوى بهذا المضمون وكان السيد الشاهرودي في مقدمة الممتنعين.[3]

هذا، وقد وجهت دعوة للسيد محسن الحكيم للمشاركة في المؤتمر المنعقد لهذا الغرض، إلا ان آية الله الحكيم لم يكتف برفض الدعوة بل اصدر فتوى بتحريم قتال الأكراد لأنهم إخوة لنا في الدين والوطن.[4]

---

(۱) العلم والجهاد ، ۲\۱۷۵ .

(۲) بياني ، ۱\۵۶۵ .

(۳) آية الله العظمى الكلبايكاني نقلاً عن وثائق السافاک ، ۳\۲۶۳ .

(۴) بياني : ۱\۵۸۱ .

وقد أثرت هذه الفتوى فى الكثير من شباب الشيعة الذين فرّوا مـن الجـيش مع بدء الهجوم على الأكراد.[١]

ومن ثم أصبح لهذه الفتوى أثر تاريخى فى التقارب بـين الـشيعة والأكـراد، وهما المكوّنان اللذان يرزحان تحت الهيمنة السنية.

وبمقتل عبد السلام عارف فى حادثة جوية، استلم السلطة بـدلاً عنـه أخـوه عبد الرحمن، وكان دمث الطباع فحـاول تطبيـع العلاقـات مـع آيـة الله الحكـيم وحوزة النجف، حتى ان السيد الحكيم بعث ذات يوم برسالة إلـى عبـد الـرحمن عارف استخدم فيها تعبير (ولدنا) فى مخاطبته، وقد بثّت من الإذاعة عدة مـرات، وكان السيد الحكيم كتبها فى أعقاب نكسة حزيران وهزيمة العرب أمام إسرائيل عام ١٩٦٧ م، وكان الرابط بين آية الله الحكيم والحكومـة نجلـه الـسيد مهـدى الحكيم.

لابدّ من الاعتراف بأن آية الله الحكيم أدخل المرجعية مرة أخرى فى الـشأن السياسى بعد أن كانت منزوية عن الأوضاع السياسية والاجتماعية إلى حد بعيد، ولم يكن هناك أى اهتمام بالقاعدة الشعبية الشيعية ولا بإمكانية توظيف طاقاتها من خلال العلاقة بين المراجع والمقلّدين فى خدمة أهداف سياسية.

لقد اهتم آية الله الحكيم بالشأن السياسى إلى درجـة كبيـرة وذلـك بـسبب الأوضاع غير المستقرة فى العراق بالإضافة إلى ما يتحلّى به السيّد مـن خـصال ورؤى وآمال. ولكن السيّد عاد وابتعد عن التدخل فى الشأن السياسى وبالـذات

---

(١) بيانى : ١\٥٨٩ .

بعد وصول البعثيين إلى السلطة، ومن بعد ذلك مرض السيد الحكيم، وراحت السلطة تطارد الأشخاص الذين يؤيدونه وفى مقدمتهم ولده السيد مهدى الحكيم الذى اضطر هو وآخرون إلى الهرب خارج العراق.

فى هذه الحقبة، تفاقم الحس الطائفى، وبدا أن حزب البعث لا يستسيغ العلاقة الطيبة التى عملت من أجلها حكومة عبد الرحمن عارف مع حوزة النجف، فتحولت مؤسسات الدولة تدريجياً إلى دوائر مغلقة على طائفة معينة هى الطائفة السنية، ولم يبق فى قيادة الحزب والدولة إلا أشخاص قلائل من الشيعة ؛ الأمر الذى زاد من حالة التخندق الطائفى فى العراق.

لقد وضع حزب البعث نصب عينيه مهمة مواجهة ما يعتبره خطرين أساسيين الأول الأكراد والثانى الشيعة بمركزية النجف. ولقد واصل البعثيون سياستهم العدائية ضد الأكراد والشيعة على السواء. ورأى البعثيون أن إزاحة عقبة النجف من طريقهم يتم عبر النيل من آية الله الحكيم كونه يمثل المرجعية العليا للشيعة، والخطوة المهمة فى هذا السياق هى تسفير الإيرانيين الذين يشكلون العمود الفقرى للحوزة.

على الصعيد الأول عمد البعثيون إلى إسقاط شخصية آية الله الحكيم فى نفوس الناس، وفى الوقت الذى كان موجوداً فى بغداد للاحتجاج على الحكومة، دبّرت السلطة لقاءً تلفزيونياً اتهمت فيه السيد مهدى الحكيم بالتجسس، وأشاعت جواً من الخوف والرعب، انعكس مباشرة على موقف الناس من آية الله الحكيم، حيث تخلّوا عنه وتركوه وحيداً فى مواجهة السلطة فاضطر إلى العودة إلى

النجف.[١]

مضافاً إلى النكسة النفسية التى خلّفها خروج جمع من الجهلة والانتهازيين وعملاء السلطة فى تظاهرات تسيء إلى المرجعية، كما قام بعض الأوباش بالتعدى على تظاهرة قام بها بعض الأفغان والإيرانيين دفاعاً عن آية الله الحكيم.

لم تمض فترة طويلة حتى توفى آية الله الحكيم فى ٢٦ ربيع الأول ١٣٩٠ هـ المصادف ١\٦\١٩٧٠ م، فخرج فى تشييع جنازته حوالى مليون نسمة كان من بينهم أحمد حسن البكر الذى باغتته الجماهير بهتافاتها المستنكرة لاتهام السيد مهدى الحكيم بالتجسس.[٢]

هذه المواقف شكلت قاعدة لإجراءات السلطة البعثية فى مواجهة الشيعة التى بلغت فى بعض مراحلها إلى اتهام البعثيين للشيعة ككل بأنهم إيرانيون. واتخذت المواجهة شكل (العربى السنى فى مواجهة الفارسى الشيعى)، وقد نشرت مئات الكتب التى تحرض ضد الشيعة وتتهمهم تارة بالفارسية وأخرى بالشعوبية من قبيل كتاب (وجاء دور المجوس). هذه الأساليب الدعائية المحرضة ضد الشيعة استمرت إلى ما بعد انتصار الثورة الإسلامية فى إيران لتصبح رأسمال الوهابية فى التأليب على إيران والتشيع، عبر نعت الإيرانيين بالمجوس، وهو النعت الذى تبدل الآن إلى الصفويين.

لقد ابتدأ حزب البعث منذ وصوله السلطة فى ١٧ تموز ١٩٦٨م بمضايقة

---

(١) انظر القصة كاملة في : سمامي ، عشرون سنة من تاريخ الحوزة ، ٤٨١ .
(٢) شبر ، حسن : ٢\٤١ .

الشيعة وتقليم أظافرهم وتقليص نفوذهم فى الدولة، ومن ثم أعلن المواجهة مع الشيعة فاستعمل ضدهم سياسات وحشية تمثلت فى قمع الشيعة واغتيال رموزهم الدينية وذلك على مدى ثلاثة عقود أسفرت بمجموعها وبتداعياتها عن هذا الوضع المأزوم الذى يعيشه العراق والمنطقة الآن.

كتب السد مرتضى العسكرى وهو من قيادات حزب الدعوة واصفاً سياسة البعث ضد الحوزة، يقول : سوف يستمر الوضع فى النجف على هذا المنوال حتى تستبيح الحكومة العراقية الحوزة العلمية فى النجف وتقضى على مظاهر زيارة العتبات المقدسة فى النجف وكربلاء والكاظمية. والى جوار ذلك سيواصل البعثيون قمع الأكراد ومحاربتهم، لأن الأكراد إذا قويت شوكتهم فى العراق فسوف يبادر الشيعة إلى تأييدهم وبالتالى قد تخرج الأمور عن سيطرة السنة، هذا ما تخشاه الحكومة فى العراق، لذا فهى تعمل بشكل متزامن على قمع الأكراد وتضعيف مكانة الشيعة... ثم يشير العسكرى الذى هاجر إلى إيران سنة ١٩٧٤ م إلى محاولة صدام استحصال فتوى من علماء الشيعة لتبرير قتال الأكراد وان محاولاته هذه باءت جميعاً بالفشل.[١]

وازدادت الأوضاع وخامة بعد الثورة الإسلامية فى إيران، وانتاب السلطة فى بغداد هلع شديد من إمكانية تأثير الثورة على الأوضاع الداخلية فى العراق، فبادرت إلى شن الحرب على ايران من أجل خلط الأوراق واستمرت الحرب ثمانى سنوات (١٩٨٠-١٩٨٨ م)، أعقب ذلك احتلال الكويت ومن ثم

---

(١) آية الله العظمى الكلبايكانى فى وثائق السافاك ، ٣\٢٦٨-٢٦٩ .

الانتفاضة الشعبانية عام ١٩٩١ م كنتائج ترتبت على حماقات السلطة فى العراق ورغبة البعثيين فى الذهاب بعيداً فى أطماعهم التوسعية.

ج : آية الله الحكيم والحكومة الإيرانية

مع بدء إعلان مرجعية آية الله الحكيم، أبرق محمد رضا بهلوى إلى السيد الحكيم معزّياً إياه برحيل المرجع آية الله البروجردى، وذلك فى إيحاء إلى ان الحكومة الإيرانية ترى فى السيد الحكيم مرجعاً أعلى للعالم الإسلامى. إثر ذلك، ورغم مجاراة السيد الحكيم لبعض المواقف النهضوية لرجال الدين فى إيران ضد سياسات الشاه[١]، إلا أن الحكيم ظلّ يتحرك باحتياط وحذر متحاشياً الاصطدام بالحكومة الإيرانية، وذلك لأمرين ؛ الأول : أنه يدخل فى مواجهة شرسة مع الحكومات القومية فى العراق ممثلة بالبعثيين.

والثانى تأثره بالرؤية التقليدية السائدة فى النجف والتى تنظر إلى سلطة الشاه فى إيران على أنها السند والدعامة الوحيدة للتشيع فى العالم.[٢]

ولهذا، عندما نفى آية الله الخمينى إلى النجف والتقى آية الله الحكيم طلب منه الذهاب إلى إيران لكى يطلع على الأوضاع فيها عن كثب.[٣] ولقد أثار تردد بعض شخصيات البلاط الشاهنشاهى على بيت السيد الحكيم حفيظة علماء الدين الثوريين واستياءهم.

(١) انظر جوابه للرسالة التى تطالبه بدعم وتأييد حوزة النجف لأحداث قم، الكبايكانى ١٠ / ٢٤ ـ ٢٥ .

(٢) خاتم يزدى ، ٨١ .

(٣) خاتم يزدى ، ٩٤-٩٥ .

يقول المرحوم خاتم اليزدى ان موقف السيد الحكيم من الشيوعية أثار عليه سخط الشيوعيين[١] الذين كان لهم نفوذ قويّ فى الأوساط الشعبية آنذاک حيث سادت الأجواء الثورية فى العالم العربى واستقطبت نحوها الشباب العربى وبضمنهم الشيعى، وهذا خطر آخر يخشاه الحكيم.[٢]

كان التصور الذى يشغل ذهن آية الله الحكيم هو أن سقوط الشاه يعنى سقوط إيران بأيدى الشيوعيين.[٣]

ذات مرة، ذهب أحد المقربين من آية الله الخمينى واسمه نصر الله الخلخالى إلى آية الله الحكيم وطالبه بأن يبدى اهتماماً بمجزيات الأحداث فى إيران، فكان جواب السيد الحكيم : أنا عراقي، ولا شأن لى بما يجرى فى ايران ![٤] بالمقابل لم يُبد رجال الدين الثوريين تعاطفاً مع آية الله الحكيم حيال الضغوطات التى تعرض لها. إلا ان مكوث آية الله الخمينى فى النجف أدى إلى ولادة توجّه جديد فى هذه المدينة يعارض الحكومة الإيرانية بقوة، ولكن آية الله الحكيم ظلّ متحفظاً على هذه التوجهات.[٥]

وهنا لابدّ من الإشارة إلى مفاد حديث دار بين آية الله الخمينى وآية الله

---

(١) أصدر آية الله الحكيم فتواه الشهيرة بحق الشيوعية ونصّها : (لا يجوز الانتماء إلى الحزب الشيوعى فإن ذلک كفر والحاد أو ترويج للكفر والإلحاد ، أعاذكم الله وجميع المسلمين عن ذلک) . انظر : شبر ، حسن : ٢٢٨\١١ .

(٢) يقول آية الله الملكوتى فى مذكراته (ص ٥١) : بلغ النفوذ الشيوعى فى النجف حدّاً راح البعض يطلق عليها اسم موسكو !

(٣) خاتم يزدى : ٩٤ .

(٤) خاتم يزدى : ٩٥ .

(٥) خاتم يزدى : ٨٤ .

الحكيم بهذا الصدد.

حيث حاول السيد الخمينى بإصرار جرّ السيد الحكيم إلى الدخول فى مواجهتة مع الشاه، إلا ان هذه المحاولة جوبهت برفض من قبل السيد الحكيم.[١]

وقد جرى هذا الحديث حينما قام آية الله الخمينى بزيارة لآية الله الحكيم مساء يوم الاثنين ٢٢ جمادى الثانى ١٣٨٥ هـ وبحضور حجة الإسلام سمامى الذى يروى مجريات اللقاء كما يلى :... لم نلبث فى فناء دار آية الله الحكيم طويلاً حتى ظهر لنا السيّد وتبادل مع السيد الخمينى التحية، وبعد برهة قال السيد الخمينى : سمعت أنك مريض، وأرى من المناسب ان تقصد إيران لغرض العلاج، ولكى تتمكن أيضاً من مراقبة الأوضاع فى إيران عن كثب.

فأجابه السيد الحكيم : أنا مطلع على كل شيء.

فبادر السيد الخمينى إلى القول : لا أظن ذلك، إذ لو كنت كذلك لما قصّرت فى التعاطى مع الوقائع الأخيرة فى ايران.

السيد الحكيم : قمت بما هو وظيفتى الشرعية، على أنك لست خبيراً بالأوضاع السياسية للعالم، ثمة أناس انتهازيون يثيرون هذه المشاكل من اجل مصالح خاصة، وينبغى ان نكون حذرين ومتيقظين جداً.

السيد الخمينى : لعلّك لا تدرى بان أمريكا وبريطانيا تسعيان إلى القضاء على الدول الإسلامية، وقد خططا للشروع بإيران. فهم ينهبون جميع خيراتها ويمتصون دماء هذه الأمة، نعم، ينبغى علينا الحذر واليقظة، وقد انتفضنا من أجل

---

(١) محتشمى ، المذكرات : ٤٨٧-٤٨٩ .

ذلك، واعلم بأن محمد رضا بهلوى لا يؤمن بالإسلام أصلاً.

السيد الحكيم : نعم، ما تتفضل به صحيح، ولكن طريق مقاومة ذلك ليس ما هو تقوم به، لأننا لا نملك القوة والسلاح الكافيين، وليس لدينا إلا هؤلاء الناس، وقلوبهم مع الريح، لدينا تجارب من ثورة العشرين، ونعلم كيف تعامل الانجليز معنا، وما الذى ستؤول إليه الثورة. يجب أن نتحرك بحيطة وحذر، لأن أدنى غفلة منا يمكن أن تؤدى إلى إذلال المسمين أو إبادتهم، وأرى نفسى مسؤولاً عن ذلك، وقد حققنا فى بعض القضايا، فلم نجدها كما تبيّن وتقول !

السيد الخمينى : وانا بدورى لم أقدم على ما أقدمت عليه من دون فحص وتثبّت ولدىّ وثائق دامغة.

السيد الحكيم : هل أعددت جواباً لله على هذه الدماء ؟

السيد الخمينى : لماذا إذن نهض الإمام الحسين عليه السلام واستشهد هو ونخبة من أصحابه، أليس من أجل حفظ الإسلام ؟ فهل نعترض عليه بما تقول؟

فى هذه اللحظة بان الغضب على وجه آية الله الحكيم وقال بلهجة حادة : أيها السيّد ! هل تقارن نفسك بشخصية الإمام الحسين ؟ الإمام الحسين عليه السلام إمام مفترض الطاعة وهو عالم ومأمور من قبل الله سبحانه وتعالى، ثم لماذا لا تستشهد بموقف الإمام الحسن عليه السلام، كلّما أردت أن تقوم بعمل أو تريق دماً تتشبث بالإمام الحسين عليه السلام. إن إراقة قطرة دم واحدة لإنسان برىء فيها مسؤولية عظيمة أمام الله سبحانه وتعالى... وخيّم الصمت والسكون على جوّ اللقاء، ولم يتحدث السيد الخمينى بعدها، ومرّت لحظات نهض بعدها

السيد الخمينى من مكانه ليغادر وشيّعه السيد الحكيم إلى الباب.

استغرق هذا اللقاء الساخن حوالى عشرين دقيقة فقط وخلال هذا الوقت حضر أيضاً السيد يوسف الحكيم نجل الإمام الحكيم الأكبر وبعض من أولاد السيد الحكيم وحاشيته.[١]

من ناحية أخرى، كان السيد الحكيم ينوء بضغوطات الحكومة الطائفية فى العراق والتى كانت تتسلّط على أكتاف العراقيين وحوزة النجف، خاصة بعد مجيء البعثيين : الأمر الذى جعل آية الله الحكيم يفكر بأنه غير قادر على القتال على جبهتين.[٢]وان الأفضل أن يكتفى بالتأييد القلبى للنهضة الإصلاحية وان كانت لا تجدى عملياً، كما أنها مرفوضة من قبل الطلاب الإيرانيين وبعض العراقيين من أصحاب النزعة الثورية. علماً بأن الطلبة الإيرانيين المساندين لتوجه السيد الخمينى كانوا يشكّلون أقلية فى النجف، بحيث انه بعد وفاة آية الله الحكيم توزعت الحوزة على مرجعية السيد الخوئى والسيد الشاهرودى، ولم تكن للسيد الخمينى حصة تذكر، حيث ان حوزة النجف لم تتعاطف أصلاً مع التوجهات الثورية لآية الله الخمينى.[٣]

وقد ورد فى بعض التقارير فيما يتعلق بمواقف آية الله الحكيم المناوئة للسلطة البعثية، أن المرحوم السيد مصطفى الخمينى قصد بيت الإمام الحكيم وهمس فى أذنه قائلاً : ان أسلوبك هذا فى المعارضة ينبغى أن يتبدل، لأنه

(١)نهاية اللقاء حسب مذكرات السيدالسماميالموجودة فى الموقع الالكترونى: WWW.hISTORYLIB.COM

(٢) خاتم يزدى : ١٨٨ .

(٣) شبر ، حسن : ٢\٤٤ .

بشكله الحالى يصبّ فى صالح الحكومة الإيرانية، وهذا غير مقبول.[1]

تسفير الإيرانيين من العراق

قلنا ان المشاعر الطائفية فى العراق تأججت أكثر فأكثر خلال الحقبة البعثيـة، وزاد الطين بلة ان النزاع الشيعى ـ السنى فى العراق اكتسب لوناً آخر هو النـزاع بين العرب والفرس. ثم ان النظام العالمى الجديد حينها جعل مـن العـراق ممـثلاً عن روسيا، وإيران ممثلة عن أمريكا فى الحروب والمنازعات التى تحـصل فـى المنطقة. أضف إلى ذلک الأطماع التوسعية لـدى البعثيـين بـاحتلال جـزء مـن أراضى إيران ما أثار موجة من الخلافات الواسعة والعميقة والتى راحت تتـشكل كل يوم بزىّ جديد ؛ فتارة هى نزاع قومى وأخرى مذهبى وثالثة من اجل قطعـة أرض.

وأحد معالم هذا النزاع، أو قل النقطة التى يمكن ان يستفيد منها البعثيون فـى إظهار مقدرتهم هى العمـل علـى طـرد الإيـرانيين المـستوطنين فـى العـراق أو الإيرانيين المستعربين الذين لم يحصلوا بعد على الجنسية العراقية.

وبغضّ النظر عما سلف، ثمة تحليل أعمق لعمليات التهجيـر هـذه، ذلـک ان حزب البعث كان يهدف من هذا الإجراء إلى تقويض أركان الحوزة العلمية فـى النجف والتى تشكل كما قلنا آنفـاً أحـد الخطـرين الرئيـسيين الـذين يواجهـان مستقبل البعث (بالإضافة إلى الخطر الثانى وهم الأكراد).

---

(١) آية الله الكلبايكانى فى وثائق السافاک : ٣٠٥\٢ .

ولما كان الإيرانيون يشكلون القاعدة الأكبر لهذه الحوزة، فإن تسفير أعداد هائلة منهم، يؤدى إلى تضعيف الحوزة وإمكانية السيطرة على موضوع المرجعية فيها.

كان آية الله الحكيم فى زيارة الأربعين بكربلاء المقدسة عندما بلغه خبر تسفير الدفعة الأولى من الإيرانيين عام ١٩٦٩ م، فكأن السلطة استغلّت غياب آية الله الحكيم عن النجف لتقدم على هذا الإجراء. ولم يلبث السيد الحكيم أن قفل راجعاً إلى النجف مما تسبّب فى هدوء نسبى للأوضاع وأفرج عن المعتقلين.[١] وفى ذلک الوقت أثيرت قضية أخرى هى المعاملة السيئة للزوار الإيرانيين، وقد بادرت الحكومة الإيرانية التى كانت على خلاف مع حكومة العراق إلى نشر هذه الأخبار.[٢]

لم تكن مواقف علماء قم حيال هذه الأحداث موحدة، وبالذات آية الله الكلبايكانى الذى يجيل النظر كثيراً فى هذا الموضوع الحساس خشية ان تستثمر

---

(١) سمامي ، عشرون سنة من تاريخ الحوزة : ٤٧٩-٤٨١ .

(٢) فى غضون ذلک بعث السيد محمد الشيرازى الذى كان يقيم فى كربلاء برسالة إلى المراجع فى إيران كذّب فيها الأخبار المنشورة فى وسائل الإعلام الإيرانية ، وقال ان علماء العراق يتباحثون الآن مع الحكومة العراقية لأجل تجاوز الخلافات على أسس إسلامية وان حكومة العراق تستجيب . (انظر : آية الله الكلبايكانى فى وثائق السافاک ، ١٨٢\٢) .

وبعد أيام ذكر شهود عيان أنهم شاهدوا المعاملة السيئة بحق الزوار الإيرانيين ، وبالتالى فالأخبار صحيحة! وورد فى الصفحة الأخيرة من التقرير ان تدخل آية الله الحكيم أسفر عن ترک الزوار وشأنهم ، إلا أن السلطة فى العراق واصلت سياساتها التعسفية تجاه الإيرانيين المقيمين فى العراق . ولكن علماء إيران فى ذلک الوقت كانوا ينظرون إلى هذه التقارير نظرة شک وريبة ، بتصور أنها من تدبير نظام الشاه لغرض الاستفادة من العلماء فى النزاع بين الحكومتين . ولكن الوقائع اللاحقة أثبتت وقوع هذه الأعمال بالفعل بغض النظر عن هدف الشاه من نشرها .

حكومة الشاه تداعياته لمصلحتها، فيما كان لآخرين موقف معترض عبّروا عنه من خلال برقيات أرسلوها إلى آية الله الحكيم.

وعقيب وفاة السيد محسن الحكيم، بادر البعثيون إلى معاودة عمليات التسفير، وذلك قبل ان تظهر للملأ مرجعية قوية جديدة. وقد توجّت عمليات التسفير هذه عقوداً من الجدل السياسى حول وضعية الإيرانيين المقيمين فى العراق، والذين امتنعت الحكومات العراقية عن منحهم الجنسية العراقية حتى لو استوطنوا العراق لعدة أجيال.

بدأت حملات التسفير عل نطاق واسع فى شتاء ۱۹۷۱ م وعلى نحو صاحبه أوضاع مأساوية للغاية، وتنامت بسرعة أعداد (المعاودين) وهو اللقب الذى أطلق فى إيران على أفواج المسفرين التى تراكمت على الحدود بين البلدين أو تمّ إسكان بعضهم مؤقتاً فى المدن الحدودية الإيرانية. وقد شكّل طلاب الحوزة العلمية فى النجف قسماً كبيراً من هذه الكتل البشرية الملقاة على الحدود. والذين لم يمهلوا سوى بضعة أيام لترتيب أوضاعهم قبل مغادرة البلد، وإلا فسيكون من الممكن اعتقالهم من أى مكان ورميهم على الحدود الإيرانية دون سابق إنذار.

أدى هذا التطور إلى نوع من المواجهة بين مراجع التقليد فى ايران والنجف من جهة وبين الحكومة العراقية من جهة اخرى، وقد شمل هذا التحول فى المواقف بعض القوى الثورية التى أعادت النظر فى علاقاتها مع الحكومة العراقية التى كانت ترفع لواء الدفاع عن القوى الثورية المضطهدة. وقد أعلن الإمام الخمينى احتجاجه على إجراءات السلطة العراقية عبر الخطب والرسائل

والبيانات الصادرة بهذا الشأن.[١] ويقال ان الإمام بعث بجوازه لأجل الحصول على تأشيرة خروج من العراق أسوة بباقى الناس الذين شملهم هذا الإجراء التعسفى ما حدا بالسلطة إلى إيقاف عمليات التسفير ولو مؤقتاً.[٢]

أما فى داخل إيران، فلقد كانت حملات الاحتجاج ضدّ الحكومة العراقية أكثر حدّة وصراحة. ففى بيان صادر عن آية الله صدوقى وصف الحكومة العراقية بـ (الذئاب البعثية) التى شرّدت العلماء الأعلام والمواطنين الإيرانيين المقيمين فى الأماكن المقدسة.[٣]

ويدعى السيد خاتم اليزدى ان النظام العراقى استطاع كسب موافقة آية الله الخوئى على إجراءات التسفير. والظاهر أن الحكومة البعثية وصلت إلى مبتغاها هذا عبر الحيلة والخدع.[٤]

ان معظم المسفّرين كانوا من أهالى كربلاء والنجف والكاظمية وبالتالى فإن حصة الطلبة الإيرانيين بينهم كانت كبيرة جداً. ولقد تمّ هذا العمل بقسوة بالغة ودون تمييز بين طالب العلم وغيره.[٥]

وعادت فصول قصة التهجير من جديد عام ١٩٧٥ م واستهدفت هذه المرة

---

(١) اقرأ النص الكامل لها فى : أحمدى ، ص ١٠٦-١٦٦ . حث أشيد بهذا الموقف من الإمام واعتبر دليلاً على وطنيته وعدم سماحه للأجانب باستغلال الخلاف بينه وبين حكومة بلده (آية الله الكلبايكانى فى وثائق السافاك ، ٢\٢٥٧) .

(٢) انظر : مذكرات آل إسحق (طهران ، المركز الوثائقى ، ٢٠٠٦ ، ص ١٤٣) حيث توجد تفاصيل كثيرة بهذا الشأن .

(٣) انظر : الشهيد آية الله الحاج الشيخ محمد صدوقى فى وثائق السافاك ، ص ٢٩ .

(٤) خاتم يزدى : ١٠٨ ، ولمزيد من البيان : خاطرات آل اسحق : ١٨٧-١٨٨ .

(٥) انظر : محتشمى ، المذكرات السياسية : ٢\١٥٠-١٥٤ .

العلماء والمجتهدين من الطراز الثانی، وبعض هؤلاء كآية الله التبريـزی[1] أصـبح لاحقاً من مراجع التقليد الكبار فی قم، واستمرت عمليات التسفير والتهجير هـذه إلى أيام الثورة الإسلامية فی إيران وما بعدها.

وفيما يخصّ الغالبية من هؤلاء المسفَّرين لابدّ من الإشارة إلى نقطـة مهمـة، وهی أن الكثير من هؤلاء ليست لديهم جنسية عراقية، وثمة دلائل على هـويتهم الإيرانية. والكثير من هؤلاء لا يجيدون الفارسية ويتحدثون باللغة العربيـة. وفـی ظلّ ذلک تدخّل آية الله السيد محمود الشاهرودی لدى القنصلية الإيرانية وكـان يعطی الواحد منهم ورقة تأييد لكی يبرزها أمام القنصلية ويتوجه بمجرد وصـوله إلى إيران إلى دوائر الجنسية للحصول على الوثائق الرسمية التـی تثبـت هويتـه الإيرانية.[2] ان تعامل العراقيين مع الإيرانيين فی هذه المرحلة شكّل واحـدة مـن أكثر أنواع التعامل قسوة وظلماً بحق أناس استوطنوا العراق علـى مـدى أجيـال وأسهموا بشكل فاعل فی بنائه واعماره، وهمالآن يغادرون البلد خالی الوفاض.

تأسيس حزب الدعوة وبروز الشيعة في العراق

مع تنامی القدرة السياسية للشيعة فی عهد آية الله الحكـيم، وظهـور الـشيعة كقوة اقتصادية كبيرة، تولّدت فی أذهانهم طموحـات بـأن يكـون لهـم دور فـی الحكم. ولم يكن هذا الطموح قريب المنال مع تشتت الـشيعة وضـعف تجـربتهم السياسية وحرمانهم المتعدد الأشكال والصور والذی تواطأت عليـه الحكومـات

(۱) انتقل إلى رحمة الباری أيام ترجمة الكتاب .

(۲) سمامی : ۷۴ .

المتعاقبة فى العـراق، حتـى شـاع فـى العـراق المثـل القائـل : (للـسنة الحكـم وللشيعة اللطم).

وفى محاولة فهم لجبران هذا النقص تبلورت بين الأوساط النخبوية الـشيعية فكرة تشكيل حزب الدعوة الذى كان يقوده رجال دين متنـورون يغلـب علـيهم طابع التفكير الأممى، وفى مقدمتهم السيد محمد بـاقر الـصدر والـسيد مرتـضى العسكرى والسيد مهدى الحكيم ومحمد صادق القاموسـى والـسيد محمـد بـاقر الحكيم وآخرون.(١)

وجاءتأسيس الحزب بعدثورة١٤تموز١٩٥٨م بشهور، وقيل قبلها بشهور.(٢)

وقد كان تأسيس الحزب بمعونة من آباء آية الله الحكيم، السيد مهدى والسيد محمد باقر من تلامذة محمد باقر الصدر مع وجوه بارزة أخرى من بـين رجـال الدين. ففى منزل آية الله الحكيم فـى كـربلاء ـ وبغيابـه طبعـاً ـ اجتمعـت عـدة شخصيات هم : محمد باقر الصدر ومحمـد بـاقر الحكـيم ومرتـضى العـسكرى ومحمد مهدى الحكيم وطالب الرفاعى ومحمد صادق القاموسى وعبد الـصاحب دخيل(٣) ومحمد صالح الأديب.(٤)

ومن ثم انخرط فى صفوف الحزب جيل آخر من النخب الحوزوية والجامعية

---

(١) الخرسان : ٥٤ .

(٢) شبر ، حسن : ١١\٢١٨ .

(٣) من أوائل شهداء حزب الدعوة اعتقل عام ١٩٧١ م . وانقطعت أخباره سوى ما عرف بان جسمه أذيب فى حوض التيزاب ، وهو من بنى رولة من فروع قبيلة عنزة ، وله أصول عربية بدوية (شبر/ حسن: ٦٧\٢).

(٤) الخرسان : ٦٤ .

منهم محمد بحر العلوم وعدنان البكاء وعبد الهادى الفضلى وحسن شبر ومحمد علي التسخيرى وغيرهم. وما لبث الحزب ان كوّن لنفسه قاعدة واسعة فى المناطق ذات الغالبية الشيعية (وسط وجنوب العراق).

حين بلغ السيد الحكيم أنباء تشكيل الحزب أبدى معارضته لأن يقترن هذا الحزب بالحوزة. جراء ذلك قرر السيد محمد باقر الصدر الانسحاب من الحزب عام ١٩٦٠ م وكان الصدر من الداعمين لمرجعية آية الله الحكيم وان كان يتلمذ على يد السيد الخوئى.[١]

من بعد ذلك تحول محمد باقر الصدر إلى مرشد روحى للحزب تاركاً مكانه فى الحزب إلى السيد مرتضى العسكرى الذى انتخب اميناً عاماً له، وتمكن عام ١٩٦٥ م حين افتتاح كلية اصول الدين فى بغداد.

يذكر ان السيد محمد باقر الصدر كان يمثل امتداداً لمرجعية آية الله الحكيم، وهذا يفسر اهتمامه بالشأن السياسى، وقد ألّف كتابه الشهير (فلسفتنا) على أساس توصية من آية الله الحكيم وذلك لمواجهة المدّ الشيوعى الذى اكتسح الوسط الشيعى أكثر من اكتساحه للوسط السنّى.[٢]

ولقد أبدى البعثيون اهتماماً بهذا الكتاب وطبعوه باستثناء فصل الاشتراكية لأنه لا يتوافق مع توجهاتهم. ويقال أنه كان هناك خلاف وقتها بين آل الصدر والسيد الخوئى، وقد سعى البعثيون لتعميق هذا الخلاف. وقد نشر وزير المعارف

(١) شبر ، حسن : ١\٢٩٦-٢٩٧ .

(٢) الخرسان : ٩٨ .

وقتها عبد الستار الجوارى كتاباً بهذا القصد.

على صعيد حزب الدعوة، لم تكن فكرة الوطنية والانتماء للعراق مطروحة، وذلك ان التوجه السائد هو التوجه الأممى المنادى بوحدة الأمة الإسلامية، مع تأكيد ان حزب الدعوة يسمو فوق الاعتبارات الطائفية. ولهذا كانوا فى الحزب يفكرون فى فتح فروع له فى أفغانستان ودول أخرى.

وقد اختير عبد الهادى الفضلى ليكون ممثل الحزب فى السعودية، وهو الآن الممثل المطلق لآية الله الخامنئى فيها.

لكن محمد باقر الصدر كان لديه نزعة عراقية ظاهرة، وكان يفكر بايجاد نوع من الاتحاد بين السنة والشيعة فى هذا البلد ؛ الأمر الذى ظهر جلياً فى رسائله وبياناته المنشورة.[١]

كان تأسيس دولة اسلامية احد الأهداف المنظورة لحزب الدعوة الإسلامية وقد قرر الشهيد لصدر هذا المطلب من الناحية الفقهية النظرية.[٢]

ينحدر الشهيد الصدر من اسرة معروفة، وهو من خيرة تلامذة السيد الخوئى، وان كان منهمكاً فى العمل مع الجهاز المرجعى للسيد الحكيم. وبعد وفاة آية الله الحكيم أيد الصدر مرجعية الخوئى لفترة من الزمن، ولكنه ما لبث ان اصدر رسالته العملية واعلن نفسه مرجعاً أعلم. وهذا ما ادى إلى تعكير الأجواء بين اسرتى الخوئى والصدر.

---

(١) الحائرى ، سيد كاظم ، مباحث الأصول ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ١٥٣ .

(٢) الخرسان : ٩٤ .

أما حزب الدعوة فكان بصدد الترويج لمرجعية السيد الصدر وتشجيع بعض الطلبة الجامعيين على الانخراط فى صفوف الحوزة لأجل الانطلاق بنهضة جديدة، غير ان السلطة البعثية احبطت هذه المساعى، وكانت الخطوة الاولى فى ذلک الضغط على آية الله الخوئى لقطع رواتب هذا الصنف من الطلاب، وفى الوقت ذاته تلقى آية الله الصدر توصية بمنع الطلاب من دخول التنظيم الحزبى. ومن ثم بدأت حملات الاعتقال فى صفوف حزب الدعوة مما عرقل توجه الحزب نحو تعريب الحوزة، علماً ان السيد الصدر أبقى على علاقته بالحزب بصورة خفية. والى ذلک الوقت لم يكن للسيد الصدر صلة برجال الدين الثوريين الإيرانيين، ولم تسجل له مواقف معينة فى تأييد خطوات الإمام. ولم يقترب من الحالة الثورية الإيرانية إلا مع بلوغ الأحداث فى إيران قمتها وبالتزامن مع تسريع حزب الدعوة لمراحل العمل ضد حكومة البعث، وهذا يؤكد من أسلفناه قبل قليل من ان السيد الصدر كرّس جلّ اهتمامه للتعاطى مع مجريات الأحداث فى العراق.

مما لا شک فيه ان تقييم حركة السيد الصدر يجب ان تتم فى ضوء التيار الحوزوى الذى حمل على أكتافه مهمة تعريب الأوضاع فى الحوزة. كان الشهيد الصدر يعطى دروسه بالعربية تأسياً بآية اله الحكيم الذى طلّ الوحيد الذى يلقى دروس الخارج باللغة العربية. مضافاً إلى أن حزب الدعوة كان يدعم بقوة مسألة تعريب الحوزة، بقبول احد طلاب النجف بهذا الشأن : إلى ما قبل مرجعية السيد الحكيم والسيد الصدر كانت الهوية العربية لحوزة النجف شبه غائبة.

وكان الطلاب العرب الوافدون إلى الحوزة لا يحملون من الطموح أكثر من رغبتهم فى لبس العمامة وتعلّم قراءة المراثى الحسينية والمدائح النبوية، وكان هذا ظاهراً جداً من طريقة ارتدائهم للعمائم، بحيث كنا نعرف من أين جاءوا ولأيّ غرض. إن الطلبة ذوى الأصول العشائرية يأتون إلى النجف ويدخلون فيها دورات قصيرة لتعلم الخطابة ويعودون إلى مناطق سكناهم. إلا ان السيد الحكيم وأولاده كانوا يخططون لما هو أبعد من ذلک، لقد كان هدفهم تكوين جيل من العلماء العراقيين، ولذلک فتحوا مدرسة لهذا الغرض وادخلوا هؤلاء الطلبة فى دورات طويلة ومكثفة تتجاوز أغراض الخطابة والوعظ ووفروا لهذا الدورات شروط النجاح والاستمرار، وكان لهم ما يريدون فقد تخرّج منها طلاب كثيرون من أهل العلم، وراح الحضور العربى يفرض نفسه بقوة على الساحة النجفية، وان كانوا أقل من الناحية العددية، لكن تأثيرهم كبير لأن الطلاب غير العرب عاكفون على الدرس لعدم قدرتهم على الاختلاط بالمجتمع بسبب حاجز اللغة. ومن العلماء الأفاضل العرب فى تلک الفترة الشيخ حسين الحلى والشيخ عباس المظفر وغيرهم.

وكان لحزب الدعوة أيضاً دور فعال فى إضفاء الطابع العربى على الحوزة، فالكثير من الطلاب انخرطوا فى صفوف الحوزة بتشجيع من هذا الحزب والواقع ان موجة دخول الطلبة العرب والعراقيين إلى الحوزة وان كانت تتم برعاية آية الله الحكيم وإشراف مباشر منه، إلا ان الجهد الميدانى المبذول فى هذا السياق يقع على عاتق حزب الدعوة، بما يتيح لنا القول ان مهمة تعريب حوزة النجف

ساهم فيها جهتان : شخص آية الله الحكيم وحزب الدعوة.

بعد مرور أربع أو خمس سنوات أصبح المشهد السياسى فى العراق أكثر سخونة، وقامت السلطة بملاحقة واعتقال العديد من الطلبة الناشطين ومداهمة المدارس التى تحتضن الطلاب المرتبطين بحزب الدعوة بشكل أو آخر. ومن بين تلك المدارس المدرسة الشبّرية التى كانت مركزاً يرتاده الطلبة العراقيون.[١]

ويقال ان المدرسة المذكورة والتى كان يطلق عليها (الدورة) ارتبط اسمها باسم آية الله الحكيم، وكانت تدار من قبل حزب الدعوة.

ثمة شخصية دينية أخرى كانت مواكبة للأحداث فى النجف آنذاک ويقول : فى أواخر مرجعية السيد الحكيم دخلت الحوزة حقبتها العربية، حيث كانت فارسية قبل ذلک، الأمر الذى كان يخلق حاجزاً نفسياً بين الحوزة والمحيط الاجتماعى...

وكان للمرحوم آية الله الصدر دور فاعل فى توجيه الحوزة وجهة عربية. وكان يصرّ على استقدام الشباب من بين شرائح المجتمع العراقى وتربيتهم حوزوياً لكى يتولوا مهمة إرشاد الناس، وكان افتتاح المدارس العربية خطوة عملية بهذا الاتجاه.[٢]

والتحول الآخر المهم على صعيد الحوزة هو المساعى التى بذلها آية الله الصدر لتجديد مناهج الحوزة بل تجديد الفكر الإسلامى والشيعى على مستوى

---

(١) المددى : ٥٠.

(٢) الحائرى ، سيد على اكبر : ٦٥.

العراق. وقد كان الشهيد الصدر يمتلك المؤهلات اللازمة لانتشال الحوزة من واقعها الرتيب وتجهيزها بسلاح فكرى جديد، الأمر الذى لم يكن بوسع التقليديين ولا فى نيتهم القيام به. وهذا هو بالضبط ما حدا بالشباب العراقى على الالتفاف حول مرجعية السيد الصدر والتطلع إلى الحوزة والإعراض عن التيارات الإلحادية واليسارية. والحقيقة ان الشهيد الصدر هو الشخصية التى تمكنت من الوقوف بوجه التيارات الماركسية وتوجيه الأوساط الجامعية توجيهاً دينياً ظهرت آثاره فى العراق كمرحلة أولى، ثم إن كتابى (فلسفتنا) و(اقتصادنا) طبعا ونشرا فى إيران كذلك.وفى هذين الكتابين نجد فكراً أصيلاً ومعمقاً انعكس على مدرسته وتلامذته الذين أسهموا فى تأصيل هذا الفكر وتعميق آثاره، لكن البعض منهم سلك منهجاً متطرفاً بعض الشيء. والمفارقة ان المشهد العراقى الثقافى والسياسى شهد حراكاً من تيارات إسلامية أو يسارية أو بعثية.

وكلما نرى فكراً تلفيقياً من بين هذه التيارات. لكن بعض الشخصيات الدينية اتهمت لاحقاً حركات إسلامية بتبنى أفكار تحريضية ضدّ الحوزة والمرجعية.

وبالنسبة للشهيد الصدر نشير إلى أن عدم مؤازرته لتحركات آية الله الخمينى بقوة حتى قبيل انتصار الثورة، لا يعنى أنه كان بعيداً عنه من الناحية الفكرية أو من ناحية الحرص على التجديد فى الفكر الشيعى، كما لا ننسى أنه يعدّ من أبرز وأول شهداء الثورة الإسلامية، بعد أن آمن السيد الصدر ـ مع إرهاصات الثورة الإيرانية ـ بالإمام الخمينى وبثورته العملاقة، إلى درجة أنه زهد بكل شيء ووقف بوجه الطاغية صدام ولم يُبد أى تنازل للسلطة إلى أن ضحى بنفسه دفاعاً

عن الثورة وقيادتها. فى هذه الأثناء فإن بطش حزب البعث وإعدام أعداد غفيـرة من أعضاء حزب الدعوة، تسبّب فى هروب باقى الأعـضاء إلـى خـارج العـراق وبالذات إيران وسوريا. وفى مرحلة من المراحل وقع الاختيار على السيد كاظم الحائرى من تلامذة الشهيد الصدر فقيهاً لحزب الدعوة. وكان الحائرى قد تتلمـذ على آية الله الشاهرودى، وحين صار من أهل الفضل والعلـم، عـاد ودرس عنـد السيد محمد باقر الصدر.

ولم تدم العلاقة الحميمة بين الحائرى وحزب الدعوة طويلاً، بعـد أن توصـل الحزب إلى قناعة بعدم إمكانية ربط عجلة الحزب بقرارات شـخص ـ حتـى لـو كان فقيهاً ـ وقرر الحزب أن يوكل البتّ فى القضايا الهامة إلى شـورى المكتـب السياسى، وما لبث بعد ذلك أن أصدر السيد الحائرى كتاباً بعنوان (قرار الحذف) تعرض فيه لملابسات عزله عن الحزب. وفيما بعد استعاض حزب الـدعوة عـن الحائرى، بالسيد محمد حسين فضل الله الذى كان من الـدعاة وهـو الآن زعـيم دينى فى لبنان.

وقد عرف حزب الدعوة باتخاذ مواقف مؤيـدة لآراء الـسيد فـضل الله ذات الطابع التجديدى المثير للجدل عنـد الـبعض.. هـذا الـبعض الـذى اسـتمر يثيـر الإشكالات والشبهات حول علاقة حزب الدعوة بالمرجعية وطبيعة نظرتـه لهـا، وكان على أنصار الدعوة أن ينبروا كل مرة لدحض هذه التهم والشبهات.[١]

حينما خرج السيد محمد باقر الحكيم من السجن، وقرر الهرب إلى سـوريا،

(١) شبر ، حسن : ١٥٣\٢-١٧٣ .

انتدب حزب الدعوة السيد حسن شبر لمفاتحة الحكيم بالمجيء إلى إيران، على اعتبار انه من مؤسسي الحزب وله وجاهة دينية واجتماعية في العراق.[١] وبمجرد وصوله إلى إيران عام ١٩٨٠ م حظي بتقدير واحترام الإمام، الأمر الذي مهّد للإعلان تشكيل المجلس الأعلى في تشرين الأول من عام ١٩٨٢ في طهران، وبحضور ومشاركة عدد من التشكيلات والتنظيمات العراقية مثل حزب الدعوة ومنظمة العمل الإسلامي، اللذين انشقّا لاحقاً عن المجلس.

وقد أنيطت رئاسة المجلس الأعلى لأربع دورات انتخابية بالسيد محمود الهاشمي أحد أبرز تلامذة الشهيد الصدر، فيما عيّن السيد علي اكبر الحائري رئيساً للمجلس لدورة واحدة فقط وهو أيضاً من طلاب السيد الصدر، إلى إن استقرت رئاسة المجلس في دورته السادسة على السيد محمد باقر الحكيم.

لقد قطع السيد الحكيم على نفسه عهداً بالجهاد ضد نظام صدام، ووفى بعهده هذا على مدى أكثر من عشرين عاماً (١٩٨٠-٢٠٠٢).[٢] وفور سقوط النظام عاد إلى النجف، ولم يلبث فيها أكثر من ١٤ أسبوعا حتى اغتيل عند مدخل الحضرة العلوية بعد إمامته لصلاة الجمعة داخل الحضرة واستشهد (رضوان الله عليه).

خلال ذلك، كان حزب الدعوة حاضراً في المجلس الأعلى وان

---

(١) الخرسان : ٨٠.

(٢) نقل لنا صديقنا السيد الجعفري عنه (رض) انه عندما جاء إلى إيران طلب من الإمام أن يحدد له تكليفه، إلا إن الإمام فوض إليه اتخاذ القرار بأمر الاستمرار في المعارضة لنظام صدام وكذلك شكل المعارضة إن كانت مسلحة أو لا . فعاهده على أن يواصل الجهاد ضد صدام ما دام حياً .

انفصل عنه في النهاية، ففي الدورة الأخيرة من عمر المجلس، تحرك حزب الدعوة بطريقة أثارت حفيظة بعض رجال الدين العراقيين البارزين، على خلفية الاعتقاد بأن هذا الحزب متأثر بأفكار الإخوان المسلمين، ويعتبر نوعاً من الحركات التجديدية. وعوداً على عقد الخمسينيات، كان هناك بالإضافة إلى حزب الدعوة تشكيل آخر من رجال الدين أطلق على نفسه اسم (جماعة العلماء) الذين بادروا باصدار مجلة (الأضواء) في ذي الحجة من سنة ١٣٧٩ ق.(١)

ولقد أورد شبر أسماء (١٤) شخصية من جماعة العلماء منهم: الشيخ مرتضى آل ياسين والشيخ محمد رضا المظفر والشيخ حسن الجواهري والشيخ محمد جواد آل راضي وآخرون.(٢)

أن كياسة هؤلاء الأشخاص ووجاهتهم جعلتهم محطّ ثقة وتأييد المرجعية العليا آنذاك متمثلة بآية الله الحكيم الذي أوضح في بعض رسائله انه يدعم جميع منشورات هذه الجماعة.(٣)

أولى المواقف السياسية لهذه الجماعة تمثلت في إدانة إقدام الحكومة الإيرانية على الاعتراف بإسرائيل.

---

(١) وهي مجلة تصدر مرة كل أسبوعين . واستمرت في الصدور ما مجموعه إجمالا أربعة أعوام . وكانت مقالاتها الافتتاحية تكتب تحت عنوان (رسالتنا) وبقلم السيد محمد باقر الصدر الذي كان صغيراً في العمر بالنسبة إلى سائر العلماء . ولهذا لا يذكر مع ذكرهم . وكان هناك عمود يحمل عنوان (كلمتنا) يحرره السيد محمد حسين فضل الله . شبر . حسن : ٢٤٣\١ .

(٢) شبر . حسن : ٢٣٤\١ .

(٣) شبر . حسن : ٢٣٩\١ . من كتاب : الإمام الحكيم السيد محسن : ٧٠ .

مرجعية آية الله الخوئي

بعد وفاة آية الله السيد الحكيم، كان آية الله الشاهرودى من أعمدة الحوزة العلمية بلا شك. لكن مما لا شك فيه أيضاً أنه لم يكن مرجعاً عاماً للشيعة، بل هو واحد من مراجع تلك الحقبة التى تزايدت فيها الضغوط البعثية على الحوزة. فى هذا السياق أبرق آية الله الكلبايكانى من قم إليه شاجباً ممارسات حزب البعث فى تلك البرقية التى يقول فيها : لا شك أن الشعب العراقى المسلم الذى ذاق الأمرّين من سياسات البعث متذمر للغاية من هذا النظام، وسوف يقوم هذا الشعب بتأديب هذا النظام ـ الذى لا يفكر إلا بالدمار والخراب والفتنة ـ وينهض من اجل حفظ وصيانة الأماكن المقدسة والمؤسسة الدينية.[١]

وكان السيد الكلبايكانى بصدد إرسال رسالة أخرى إلى رئيس الجمهورية العراقية فى خريف عام ١٩٧٥ م مع شروع موجة جديدة من عمليات التهجير الإيرانيين من العراق ومضايقة الحوزة العلمية، لكن الظاهر ان الحكومة الإيرانية تدخلت للحؤول دون إرسال الرسالة.[٢]

وبوفاة آية الله الشاهرودى ثنيت الوسادة فى حوزة النجف لآية الله الخوئى، وذلك فى ظروف يصفها ـ كما يروى عنه ـ بأنها أشبه بظروف قائد يستلم القيادة من آخر مهزوم !

فى هذه الحقبة توزعت المرجعية على عدة مراجع، ولم تكن مرجعية السيد

---

(١) آية الله العظمى الكلبايكانى فى وثائق السافاك : ٣\٢٦٤ .

(٢) نفس المصدر : ٢\٣٣٢-٣٣٣ .

الخوئى مطلقة، خاصة على مستوى ايران التى برز فيها آية الله الخمينى بسبب الأحداث التى رافقت النهضة العلمائية ضد الحكم الشاهنشاهى. لكن هذا لا يعنى أن السيد الخوئى لم يكن له مؤيدون على الساحة الإيرانية خاصة بين أوساط المتدينين على النمط التقليدى الذين ظلوا يحتفظون فى أنفسهم بمكانة خاصة للنجف وحوزتها.

وعلى الرغم من المشاكل القائمة، يمكن القول أنه بالقياس إلى آية الله الحكيم فى العراق وآية الله الخمينى فى إيران، اختار آية الله الخوئى منهجية تعتمد الحذر والاحتياط إلى أبعد حد، حتى انه لم تكن لديه القدرة على القيام بأى نشاط فى الحقل السياسى.

وإذا أردنا معرفة المواقف السياسية لمرجعية النجف فى هذه الحقبة، نجد أن الوضع كان يختلف من سنة لأخرى. ففى حين اتخذ آية الله الخوئى موقفاً داعماً من تحرك علماء الدين الإيرانيين عام ٦٢-٦٣ م فى قم بحيث صدرت عنه بيانات شديدة اللهجة، وصل فى واحدة منها إلى حدّ تكفير الشاه وسميت بـ(الخطيرة).. نرى أن السيد الخوئى لم يتحمس كثيراً لفعاليات الإمام الخمينى فى النجف بعد نفى الأخير إليها، ومردّ ذلك إلى الخلافات التقليدية التى تحصل بين بيوتات المراجع والتى يغذّيها ذوو المنافع والمآرب الأخرى.

هذا من الناحية السياسية والاجتماعية، أما من الناحية العلمية والاجتهادية فلا يختلف اثنان أن آية الله الخوئى كان صاحب السبق والريادة فى هذا المجال خصوصاً بعد وفاة آية الله الشاهرودى عام ۱۳۹٥ ق. والدليل القاطع على ذلك

الزحام الشديد فى درسه للبحث الخارج الذى لا يقارن بدروس غيره من المراجع. وهذا الازدحام فى درسه ظاهرة فرضت نفسها حوزوياً حتى قبل رحيل آية الله الحكيم، بحيث كان درس السيد الخوئى هو المعوّل عليه فى تعيين أيام العطلة والدراسة الحوزوية. وقد استمرت هذه الوضعية من التفوق العلمى حتى بعد مجيء الإمام الخمينى منفاه الاختيارى فى النجف.

يقول الحائرى : كان لدرس السيد الخوئى رونق خاص وهو أهم دروس حوزة النجف على الإطلاق. غايتها أن السيد الخوئى كان يعمل بالتقية بأعلى درجاتها، ولا يبدى أى ميل للتدخل فى الشؤون السياسية... ولهذا فقد توجهت الأنظار صوب الشهيد الصدر.[1]

خلال تلك الأعوام، كانت علاقة الخوئى بالحكومة ايجابية نوعاً ما. وكان لرجال الدين الثوريين تصور مفاده أن السلطات العراقية دعمت مرجعية السيد الخوئى للحدّ من تأثير مرجعية آية الله الخمينى، هذا فى حال أصدر (١٤) عالماً من علماء النجف البارزين ومنهم السيد الصدر بياناً أعربوا فيه عن تأييدهم لمرجعية السيد الخوئى.[2]

ولكن بصورة إجمالية، فإن ممارسات السلطة البعثية أدت إلى تضعيف مرجعية السيد الخوئى بالقياس إلى ما كانت عليه المرجعية فى زمان السيد الحكيم. ففيما مضى كان مسؤولو الدولة يأتون من بغداد إلى النجف للقاء آية الله الحكيم والتباحث معه بشأن القضايا العالقة، بينما أنيط هذا الأمر الآن بمحافظ

(١) الحائرى : ٧٥ .

(٢) خاتم يزدى : ٩٨-٩٩ .

النجف، والذى كان يتردد على المراجع وبفواصل زمنية طويلة. فى غضون ذلك كانت عمليات التسفير والمضايقة قد قلّصت أعداد الطلاب فى النجف إلى مستوى ملحوظ، خاصة بعد الثورة الإسلامية فى إيران حيث باتت النجف تخلو من أبنائها يوماً بعد آخر بحيث كان عدد طلابها قبل موجة المضايقات والاعتقالات يربو على ١٣ ألف طالباً ـ حسب الحائرى ـ بينما تراجع هذا العدد ووصل إلى اقل من ألف.[١]

طبعاً البعض يشكك فى دقّة هذه الأرقام ويرون أن حوزة النجف فى أفضل حالاتها لم تحتضن أكثر من ثلاثة آلاف طالب علم.

وتكاد تقتصر انشطة السيّد الخوئى على مستوى علاقته بالدولة على أعداد قائمة بأسماء الطلبة الإيرانيين الذين يشعر بأن بقاوهم فى النجف ضرورى لإدامة حياتها العلمية، ويتم إرسال هذه القائمة إلى الجهات المعنية فى الحكومة العراقية من اجل تمديد اقاماتهم فى العراق. وهو العمل ذاته الذى يقوم به آية الله السيد محمد باقر الصدر من اجل تحصيل موافقة الحكومة على هذا الطلب مع المن والأذى طبعاً. واستمر الوضع على هذا المنوال لسنوات شهدت هدوءاً نسبياً فى العلاقات بين الدولة والمرجعية فى العراق، تخلّل ذلك بعض المجاملات من قبيل برقية التهنئة والتأييد التى بعث بها الخوئى إلى الرئيس العراقى احمد حسن البكر بمناسبة تأميم النفط عام ١٩٧٢.[٢]

أن الفتور الموجود بين أسرتى الصدر والخوئى كان سبباً وراء قيام كل واحد

---

(١) الحائرى : ٧٥ .

(٢) فياض الحسينى : ٩٧ .

منهما بتقديم قائمة مغايرة للقائمة التي يقدمها الآخر، وكانت الحكومة تعزف على وتر الخلاف فتقوم أحيانا بالمصادقة على إحدى القائمتين ورفض الأخرى، وبعد إرسال برقية التهنئة المشار إليها أعلاه تطور الفتور إلى توتر حمل الصدريين على التهجّم على بيت الخوئي والعدول عن تقليده. لكن برقية مماثلة صدرت عن الشهيد الصدر حول مشروع محو الأمية الذي وصفه بالخطوة المباركة في بيان نشرته مجلة (ألف باء) ما أدى إلى تخفيف حدة التوتر في العلاقة مع الدولة. وعلى أي حال، فإن المكر والدسيسة البعثية نجحتا في خلق نوع من التنافس بين الأسرتين استمر حتى أيام هجرة الإمام إلى باريس.

تواجد آية الله الخميني في حوزة النجف للفترة بين ١٩٦٥ــ ١٩٧٨ م وكان اغلب مقلديه في إيران، وأصبح له دور مؤثر في الحوزة بفضل الإمكانيات المادية التي يتمتع بها، لكن هذا الدور لم يرق بالطبع إلى مستوى تأثير السيد الخوئي في النجف.

آنذاك كانت حكومة البعث مهتمة بإنشاء جبهة معارضة للنظام البهلوي في إيران، ولذلك فسحت بعض المجال لمعارضي الشاه للعمل السياسي. مع ذلك فإن آية الله الخميني لم يحسن الظن يوماً بنوايا البعثيين ولم يكن يجاريهم في أي من مخططاتهم. وقد أثبتت الوقائع صحة تكهناته، فبمجرد أن طرأ تحسن في العلاقات بين إيران والعراق بعد اتفاقية ١٩٧٥ م، ومع تنامي موجة الغضب الشعبي ضد الشاه في ايران، أجبرت الحكومة العراقية آية الله الخميني على مغادرة العراق. فيما يتعلق بإيران نفسها لابدّ من الإشارة إلى نقطة مهمة، ففي

خضم الأحداث الساخنة للأعوام ١٩٦٢ـ ١٩٦٥ م حيث انطلقت المعارضة من قم لنظام الشاه وممارساته، كان آية الله الخوئى فى مقدمة المراجع الإيرانيين فى الدفاع عن هذا التحرک من خلال إصدار بيانات شديدة اللهجة ضد نظام الشاه. ولكن مع حلول العالم ١٩٦٨ ومجيء حكومة البعث إلى السلطة فى العراق بدأ الكثيرون بمراجعة مواقفهم المتشددة ضد نظام الشاه، وكأن شعوراً عاماً ساد الأوساط المرجعية حينها بأن الخطر البعثى يحتم عليهم تأجيل المعركة مع الشاه.

ويغذى هذا التبدل فى المواقف وجود نوع من التنافس بين الأسر العلمية فى النجف، ما خلق تصوراً لدى رجال الدين الثوريين فى بدايات الثورة بأن آية الله الخوئى غير مستعد لتأييد أى تحرک علمائى أو نهضة شعبية ضد الشاه.

مع انطلاق الثورة الايرانية، أقدمت السلطة البعثية فى العراق على جملة اجراءات تعسفية من عمليات قمع واعتقال لعناصر حزب الدعوة، خشية أن يتكرر فى العراق حدث مماثل لما حصل فى ايران. وتفاقمت الأحداث إلى درجة أن الأوضاع فى النجف الاشرف خيّم عليها صمت رهيب. وطوال الحرب ضدّ إيران لم يتحدث آية الله الخوئى بأىّ حديث ينتقد فيه إيران. يقولون ان وفداً من علماء السنة قصد النجف بعد مرور عام على الحرب وطلب من السيد الخوئى التدخل لإيقاف الحرب تمسكاً بمفاد الآية (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) ولكن آية الله الخوئى ردّ على الوفد بأن قرار الحرب لم يصدر عنه حتى يأمر بإيقافها، وانه يفضل عدم التدخل فى مثل هذه الأمور. ورغم إبعاد ونفى الكثير من الطلبة والعلماء، بقى فى النجف وجوه غير قليلة من

الطلاب والعلماء، كما أن الحكومة لم تكن تريد المجازفة بسمعتها في أوساط العرب الشيعة في المنطقة. استمر السيد الخوئي على هذا الوضع إلى حين وفاته عام ١٩٩٢\٨\٨ م، وقبل ذلك كان قد قام بآخر محاولاته لترتيب أوضاع البيت الشيعي بعد انتفاضة شعبان ١٩٩١ م حيث سقطت المدن الوسطى والجنوبية بأيدي الثوار الشيعة وانهارت اجهزة الأمن والشرطة والخدمات مما اضطر السيد الخوئي إلى التدخل وتأسيس هيئة لتمشية أمور الناس خلال تلك الفترة.[١]

ومع عودة الأوضاع إلى سابق عهدها، بات وضع النجف وخيماً للغاية بعد مقتل الكثير من العلماء، وعاش السيد الخوئي آخر أيام حياته في ضيق شديد نتيجة مضاعفة السلطة لضغوطها عليه وعلى الحوزة حتى توفاه الله فدفن مظلوماً.

البعث وفكرة إيجاد مرجعية عربية

في السنين الأولى لوصول البعث إلى السلطة وتماشياً مع سياسة الحزب العامة المتطلعة إلى القضاء على الحوزة حرص البعثيون على عدم ولادة مشروع مرجعية عربية. ولكن فيما بعد توصلت الحكومة إلى قناعة بأن مرجعية عربية هي أفضل السبل لتقليم أظافر الإيرانيين في الحوزة وجعلها تسير في فلك

(١) تشكلت هذه اللجنة من الذوات : السيد محيي الدين الغريفي (توفي النجف) ، السيد محمد رضا الموسوي الخلخالي (استشهد) ، السيد جعفر بحر العلوم (استشهد) ، السيد عز الدين بحر العلوم (استشهد) ، السيد محمد رضا الخرسان (حي يرزق) ، السيد محمد السبزواري (توفي في قم) ، الشيخ محمد رضا شبيب الساعدي (حي يرزق) ، السد محمد تقي الخوئي (استشهد) ، والسيد محمد صالح الخرسان الذي انضم اليهم لاحقاً . (انظر : النجف الاشرف / اسهامات في الحضارة ، ج ٢ ، ص ٣٩٠-٣٩٨) .

السلطة. ولذلك حاول حزب البعث أن يروّج لمرجع عربى فى مقابل المرجع الفارسي، وكان من بين الأهداف المهمة للبعث ان تحوّل الحوزة إلى مؤسسة عراقية. وهذه النقطة هى التى أشار إليها لاحقاً السيد السيستانى فى لقاء أجرى معه وأكد فيه أن السلطة لم تنجح فى مسعاها هذا.[١] والواقع ان حزب البعث ظلّ عاجزاً عن إدراك حقيقة أن المرجعية بطبيعة تكوينها تأبى أن تتلون بألوان عرقية وعنصرية، ذلك إن أصل مشروعيتها يُستمد من جذور وأسس دينية ومذهبية، وواضح إن الدين والمذهب لا يمكن أن يحتكر من قبل قومية أو عرق معين. وهذا هو الخطأ الاستراتيجى الفاضح الذى ارتكبه البعثيون فى تقييم واقع الحوزة.

بالطبع، لم يقتصر هدف البعثيين على تعريب المرجعية، بل كانوا يتطلعون إلى السيطرة على مسار الحوزة وظاهرة التقليد والمقلدين. وحتى ذلك الوقت كانت الحوزة – رغم الخلافات العرقية والقومية ـ قائمة على مبدأ التفاضل فى العلم والتقوى يقودها آية الله الخوئى الذى يتمتع بمكانة مرموقة فى الأوساط العلمية، وان كان يتعرض لانتقادات كثيرة من أصحاب النزعة الثورية.

وقد مرّ أنه أواخر عقد الخمسينيات من القرن الماضى نضج الوعى السياسى لدى العرب الشيعة فى العراق بحيث راحوا يتطلعون إلى استرجاع مكانتهم الطبيعية فى المجتمع والدولة، وأوجدوا حزب الدعوة كتشكيل سياسى يعينهم على تحقيق هذا الهدف.. وطبعاً لم يكن الدعاة يعوّلون كثيراً على مرجعية آية الله

---

(١) السيستانى : ٧٥ .

الخوئى فى تحقيق طموحاتهم، وذلك نظـراً للمـنهج التقليـدى والـذى اعتمدتـه مرجعية السيد الخوئى فى التعاطى مع الشأن السياسى والاجتماعى العام، الذى لا ينسجم مع التوجه التجديدى لهذه النخبة من الرجال الذين سرعان ما اصـطدموا بالبعثيين الذين كانوا يقدمون للحوزة دعمـاً ماليـاً مقابـل فـرض الـصمت علـى الحوزة.

وقد ألمحنا آنفاً أن السيد الخوئى بعث برسالة تهنئة إلى احمد حـسن البكـر على خلفية اتخاذ قرار التأميم، وهذا مما ثار استياء حزب الدعوة، رغم أن السيد محمد باقر الصدر أرسل ببرقية مماثلة إلى الحكومة مهنئاً إياها على إصدار قرار محو الأمية، فيما يمكن أن يعـدّ نوعـاً ن المجاملـة الظاهريـة للحكومـة لكـفّ شرورها عن الحوزة والمرجعية، وإلا فان الشهيد الـصدر اتخـذ أقـوى المواقـف المعارضة للسلطة البعثية إبان انتصار الثورة الإسلامية فى إيـران، وقـدم روحـه دفاعاً عن الثورة وقائدها الإمام الخمينى.

الهدف أو الطموح الآخر الذى كان يتطلع إليه البعثيون من تعريب المرجعيـة هو تعبيد الطريق امام وصول شخص موال للسلطة إلى مقام المرجعية، وقد ذهبوا بادئ ذى بدء إلى آية الله السيد محمد على الحمامى وأبلغوه اسـتعدادهم لتبنـى مرجعيته والترويج لهذه المرجعية بشكل خفى، لكنه رفض العـرض، رغـم أنهـم أجبروه على المشاركة فى احد المؤتمرات العربية لتأييد السلطة، الأمر الذى كان كافياً لاتهامه بأنه من أعوان السلطة، فى حين اشتهر الشيخ على كاشـف الغطـاء بموالاته للحكومة.

بعد اليأس من الحمامی، توجهت السلطة إلـى آيـة الله الـسيد حـسين بحـر العلوم، وقام الرجل بطبع رسالة عملية، إلا أنه أعرض عن الاستمرار بموضـوع المرجعية.

فی غضون ذلک، کان هناک عالم نجفیّ آخـر يـستقطب الاهتمـام ألا وهـو السيد محمد الصدر من تلامذة السيد محمد باقر الصدر. ومعروف عن آل الـصدر منذ اختيارهم النجف موطناً انهم أسرة دينية متواضعة همّها کسب العلم والتقوی، ولهذا لم تکن لهم نجاحات تذکر فی حقل الـسياسة. ولکـن بعـد وفـاة آيـة الله الحکيم بفترة، أقدم السيد محمد باقر الصدر علی طبع رسالة عملية معلناً بـذلک تصدّيه للمرجعية وکان قبل ذلک من مؤيدی مرجعية السيد الخوئی التـی ظلّـت مرجعيته مهيمنة علی الأوساط العلمية والشعبية، ولم يتفاعل مع مرجعية الـصدر سوی شريحة محدودة من رجال الدين المتنورين الذی ذهبوا بعيـداً فـأعلنوا إن الصدر أعلم من الخـوئی. وتعـدّ هـذه أول مرجعيـة لآل الـصدر والتـی انتهـت باستشهاده عام ۱۹۸۰ م. بالطبع برز من هذه الأسرة علماء کبار طاولوا المرجعية بنحو وآخر منهم السيد إسماعيل الصدر والسيد صدر الدين الصدر.

فيما بعد، جاء دور مرجعية السيد محمد الصدر الذی عرف بتقواه وطهارتـه. وادعی أشخاص بأنه الأعلم. ويدلّ علی اعتقاده الاعلمية طبعـه لرسـالة عمليـة علی ضوء العرف السائد فی الحوزة. وبالتالی بات السيد محمد الصدر فی وضـع يغری السطة البعثية بالتحرک عليه لتنفيذ المخطط الذی ظلّ يدور فی رأسها منذ زمن. ويروی شخص حضر مجلساً فی بيت السيد الصدر فـی منطقـة (الحنانـة)

أقيم بمناسبة وفاة الزهراء عليها السلام أن زهاء خمسين شخصاً من أصحاب العمائم الخضر ـ خدام الحضرة العلوية ـ مع شخصين آخرين هما الشيخ حسين الصغير والسيد يوسف الواحدى، أعلنوا بيعتهم للسيد الصدر على المرجعية العليا، وأنهم يريدون أن تكون هناك حوزة عربية، وقد أجابهم السيد الصدر قائلاً : (أشكركم على حسن ظنكم وأسأل الله أن أكون عند حسن ظنكم) ومن هنا بدأت مسيرة المرجعية للسيد محمد الصدر.

الظروف كانت معقدة، يصعب معها التحرك فى مثل هذا المسار مع الأخذ بعين الاعتبار سوابق السلطة البعثية فى التعامل مع علماء الحوزة، خاصة ما يتصل بشهادة آية الله السيد محمد باقر الصدر واخته بنت الهدى، والتى تجعل اقتحام هذا المضمار أمراً غير محسوب النتائج. وكان أولاد السيد محمد الصدر الثالثة قد اقترنوا ببنات الشهيد محمد باقر الصدر.

وعلى أى حال، فقد كان السيد محمد لصدر يعتقد بأعلميته، ولذلك فور وجدانه للفرصة المناسبة أعلن مرجعيته التى كانت مورد تأييد السلطة العراقية إلى درجة ان السيد بنفسه صرّح فى لقاء مع مجلة الوسط انه يتلقى دعماً مالياً من الحكومة مقداره ثلاثة ملايين دينار عراقى فى الشهر لتدبير شؤون مرجعيته والحوزة العلمية التابعة له. ولما كان السيد الصدر معروفاً ببساطته، كان من المستبعد ان يكون أقدم على هذا الأمر وفق خطة مدروسة يهدف من ورائها إلى مواجهة سياسات الدولة. وعندما حان الوقت وظهر أن الدولة تبغى من وراء دعمه أن تملى عليه بعض الأمور التى تتسق ونهج السلطة، بدأت بوادر الخلاف.

من جهة أخرى، فإن الاقبال الكبير على السيد محمد الصدر أوهمه بأن مرجعيته بلغت شأناً كبيراً. ففى ظل تأييد الدولة لمرجعيته بلـغ الأمـر احيانـاً ان الاذاعـة الحكومية تعبر عن بالمرجع الدينى الأعلى ![١]

ولكن بمجرد ان لمس البعثيون خطورة فى وضع السيد اقدموا علـى اغتيالـه ونجليه. فى هذه الاثناء لم يكن للمجاهدين العراقيين المتواجـدين فـى الخـارج نظرة ايجابية تجاة السيد الصدر وتحركه، وكانوا يعرضون وثائق على تعاونه مـع السلطة. وهذا الحكم يسرى على كل من مجاهـدى حـزب الـدعوة والمجلـس الاعلى. ونفس الموقف تقريباً اتخذ من قبل الجهات المعنية فى ايران.

والواقع انه بسبب تأييد الحكومة البعثة لمرجعيته ووجود نقاط غامضة فيمـا يتعلق بدور مزعوم له فى اغتيال بعض مراجع النجف، لم يحظ تحركـه باهتمـام الحكومة الايرانية. وعلى الرغم من قيامه ـ قبل شهادته بثلاثـة اشهرـــ بارسـال رسالة إلى الحكومة الايرانية بواسطة السيد جعفر نجل السيد محمد باقر الـصدر ومـطـالـبـتـه فـيها بفتح مكتب له، إلا ان الجهات المعنية فى ايران لم تـستجب لهذا لطلب.[٢]

لقد كان السيد محمد الصدر يقسم المراجع والعماء إلـى فـريقين : المرجعيـة الناطقة والمرجعية الصامتة، ويرى ان هذا التصنيف أساسى جداً ومهم من حيـث الأثر والنتيجة.[٣]

(١) الحائرى : ٧٢ .

(٢) الجابرى ، العروج الأحمر : ٣٨ .

(٣) انظر : رؤوف ، عادل ، مرجعية الميدان . ٣٢٣ .

ومع اغتيال السيد محمد الصدر ونجليه، تنامت شعبيته بين الاوساط الشعبية فى داخل العراق والتى لم يعد لها تصور واضح عن أوضاع المجاهدين فى الخارج.

والتحليل العام الذى يتمسك به الكثير من محبّيه انه فى الوقت الذى كانت الحركات الإسلامية الثورية قد اعتمدت اسلوب الكفاح المسلح لمواجهة نظام صدام. فان السيد اتبع اسلوب التقية من خلال تعبئة الحشود الشعبية التى لا ترتبط بتلك الحركات، وذلك فى محاولة لحفظ الوجود الشيعى.[١]

بعد اغتياله، تحول السيد محمد الصدر إلى رمز وتيار جماهيرى، والكثير من الراقيين اعتبروه مرجعاً شهيداً خصوصاً اصحاب الحس العروبى، وهذه فرصة أتيحت بعد سقوط النظام لمؤيدى الصدر لكى يشكلوا لأنفسهم تياراً جماهيرياً عارماً.

فى زمان صدام، اغتيل اثنان من المراجع هما آية الغروى وآية الله البروجردى، وحامت الشكوك حول دور للتيار الصدرى فى ذلك، ولكن المرجح ان ذلك كان جزءاً من المكر البعثى للتخلص من المرجعية الفارسية، وفى الوقت ذاته خلق فتنة فى حوزة النجف بين التيارات الموالية للمرجعيات المختلفة.

يقال ان ثمة فارقاً جوهرياً بين المرجعية الإيرانية والمرجعية العربية الصدرية فى القدرة على التواصل مع الجماهير. ففيما مضى، كان الارتباط بين المرجعية

(١) انظر : لقاء السيد أكرم الحكيم فى : الجابرى . ٨٠-٨٥ .

والناس ضعيفاً للغاية، وقلّما نرى مندوباً من الحوزة يذهب إلى المناطق العربية باستثناء بعض الخطباء والوعاظ المحليين. وحتى هؤلاء يشكلون ظاهرة جديدة استحدثت في زمان آية الله الحكيم. واستمر الوضع على المنوال ذاته أيام مرجعية السيد الخوئي، بل انه تقلصت كثيراً نتيجة تدخلات السلطة البعثية في شؤون الحوزة. وما أن وصل الدور في المرجعية إلى السيد محمد الصدر، ومع الدعم والحرية في العمل الذي كان يتمتع به على مستوى العمل المرجعي في العراق، فقد عمل على تقوية صلاته مع الجيل الواعد من الشباب العربي العراقي، وذلك عبر اطلاق مشروع صلاة الجمعة في شتى مدن العراق ؛ الأمر الذي ادى فيما بعد سقوط النظام إلى سيطرة الصدريين على منابر صلاة الجمعة.

ان اعمار بعض المدارس التي عطلت من قبل السلطة بسبب تنامي ضغوطها على الحوزة أو هجرة الطلبة الايرانيين والهنود وغيرهم، حوّل هذه المدارس تلقائياً إلى حوزة للسيد محمد الصدر، وقد ظلّت في ايدي الصدريين إلى ما بعد سقوط النظام.

بشهادة السيد محمد الصدر، باتت الأرضية مناسبة لشيوع أفكاره، فالرجل قد استشهد وأعداؤه كثيرون والشباب العربي الشيعي على تواصل ووفاق مع خطه العام مضافاً إلى السمعة الطيبة التي يتمتع بها آل الصدر في الأوساط الشعبية نتيجة تضحياتهم المتواصلة.

لكن جميع هذه الأمور لم تزعزع من مكانة المرجعية الشيعية التقليدية المتمثّلة في شخص آية الله السيد السيستاني، والسرّ في ذلك ان المبادئ

الأساسية للمرجعية (الأعلمية والتقوى) ما زالت هي المعيار الأول في مقام الاختيار. ناهيک عن الجهود والمساعي التي بذلت من اسرة الخوئي لتمهيد الطريق لمرجعية السيستاني.

مع ذلک كلّه، فأن من نتائج مرجعية السيد محمد الصدر، تربية جيل جديد من التلاميذ والفضلاء الشيعة العرب الذين ساهموا في تنامي قوة التيار حتى ان البعض منهم سارع إلى اعلان مرجعيته رغم ان عمرهم التحصيلي لم يتجاوز الـ (١٥) عاماً ـ وهي مدة قليلة في اعتبارات الحوزة ـ ومن هؤلاء اليعقوبي[١] والصرخي[٢] اللذين لهما الآن أتباع ومريدون. ونظراً لنفوذ التيار الصدري في الاوساط الشعبية العربية، لقد تمكن من تشكيل احزاب بدأت تنشط الآن.

بنظرة عامة، فان خط السيد محمد الصدر قد انقسم ما بين أتباع اليعقوبي وأتباع السيد مقتدى نجل السيد الصدر. اليعقوبي مثقف جامعي أنهى خدمته العسكرية أيام الحرب العراقية ـ الايرانية في وزارة الدفاع، ثم انخرط في صفوف الحوزة وسرعان ما اصبح مسؤولاً في مكتبه. وبعد شهادة الصدر مالت الشرائح الجامعية نحو اليعقوبي، بينما اتجهت الحشود الشعبية نحو السيد مقتدى ليشكلوا لاحقاً (جيش المهدي).

ينبغي القول بصورة اجمالية ان مرجعية السيد الصدر لم تأخذ مداهنا إلا بعد

---

(١) يطلق عليه أنصاره الآن لقب (آية الله العظمى) ويعدّ المرشد الروحي لحزب الفضيلة الذي يحتل ثلاثة عشر مقعداً في مجلس النواب العراقي ، وتفوق شعبيته شعبية الصرفي على نحو لا يحتمل المقارنة .

(٢) يقال ان هذا الرجل الذي يدّعي الاجتهاد والمرجعية تخرج من جامعة بغداد كلية الهندسة المدنية عام ١٩٨٧ م .

رحيل آية اله الخوئى عام ١٩٩٢ م حيث ظهرت بوادر تكون مرجعيتين، الأولى لأية الله السيد السيستانى الذى تعدّ مرجعيته امتداداً تقليدياً لمرجعية السيد الخوئى ومنطقة فاعليتها هى العراق والخليج وقسم من ايران وفى كل مكان كان فيه مقلّدون كثر للسيد الخوئى. واغلب هؤلاء من المتدينين التقليديين الذين واكبوا المرجعية منذ عقدين من الزمن. أما فى الداخل العراقى فقد شهدت بوصلة التقليد اتجاهات اخرى كان أهمها مرجعية السيد محمد الصدر المدعومة من قبل السلطة، بحث أضحت الكثير من المراكز الحوزوية فى النجف تدار بيد السيد الصدر الذى حاول إتباعه دون جدوى فتح مكاتب فى إيران.

يقول الحائرى بهذا الشأن :

(السيد محمد الصدر كان عربياً، وكان ذلك ذريعة مناسبة لتضعيف أى مرجع آخر. ومهما يكن من امر فان السيد الصدر تصدى للمرجعية... ومسادة الحكومة لمرجعيته وإن كانت بقصد اختراق مؤسسته المرجعية والتأثير على قرارات السيد الصدر، إلا انه فى المجموع العام كات هذه الخطوة فى مصلحة الحوزة والمدارس، لأن السيد الصدر استثمر المكانة التى حصل عليها فى افتتاح الكثير من المدارس... واطلق مشروع صلاة الجمعة، وقام ايضاً بتنصيب قضاة شرع فى بعض المحافظات... بالطبع تم تغيير اسماء المدارس التى أعاد افتتاحها السيد الصدر خاصة ما كان منها يحمل اسماء فارسية)[1].

لكن مقتدى نجل السيد محمد الصدر يعتبر ان ما يشاع من كلام حول علاقة

---

(١) الحائرى : ٧٦.

مرجعية والده بالسلطة لا أساس له من الصحة، ولا ينفى ان والده كان له مطلق الحرية فى اعمار مدارس النجف واعادة فتحها. واحدى أهم المؤسسات العلمية التى افتتحها الصدر (جامعة الصدر الدينية)، وكان الصدر حريصاً على تغيير اسماء المدارس من اسماء الأشخاص إلى اسماء الائمة.[١]

ايران والعراق خلال العقود الثلاثة الأخيرة[٢]

على مدى ثمانى سنوات من الحرب بين العراق وايران، بذل نظام البعث مساعى كبيرة لانتزاع فتوى من المرجعية فى النجف الاشرف تدين ايران، ولكن دون جدوى.

قبل بدء الحرب وبغية ازاحة أى عقبة محتملة فى الطريق اقدم نظام صدام على اعدام السيد محمد باقر الصدر واخته وشخصيات من قبيل السيد قاسم شبر العالم المجتهد ذى التسعين عاماً وامام جمعة النعمانية وفى صيف نفس العام ١٩٨٠ م قام باعتقال عشرة آلاف شاب شيعى وأخفاهم إلى يومنا هذا. فى غضون ذلك هرب من العراق كل طلاب العلوم الدينية والشباب الرسالى الذى كان له أنشطة سياسية، وهاجروا إلى إيران ليبدأوا أسلوبا آخر فى الجهاد ضد السلطة.

لقد اتبع المجاهدون العراقيون أساليب متعددة فى الكفاح ضد الطغمة البعثية،

---

(١) لقاء مع مقتدى الصدر فى مجلة الحوزة ، ١١٦\١٦ .

(٢) هذا البحث اقتبسته من صديقى الفاضل الدكتور محمد جعفرى الذى استفدت من مذكراته فى أماكن متفرقة من الكتاب .

فقد شكل بعضهم قوات فيلق بدر للقتال فى جبهات الحرب، فيما اختار بعض آخر ممارسة فعالياته فى إطار تشكيلات سياسية ـ إعلامية مثل حركة المجاهدين العراقيين والمجلس الاعلى للثورة الإسلامية فى العراق، وهناك شريحة من العراقيين المهاجرين انخرطوا فى صفوف الحوزة العلمية فى قم المقدسة من اجل اكتساب العلوم الدينية ونشرها فى صفوف المهاجرين العراقيين وهؤلاء أيضا كان يرتادون جبهات القتال بين حين وآخر لشدّ أزر المجاهدين.

وبوقوع آلاف الجنود والضباط العراقيين أسرى بيد القوات الإيرانية خلال السنة الثانية من الحرب تهيأت لهؤلاء فرصة مناسبة لاتخاذ قرار حر بشأن مصيرهم بعيداً عن قمع السلطة وإرهابها. ومع إقامة دورات تثقيفية فى معسكرات الأسر قرر حوالى عشر آلاف أسير عراقى الالتحاق بصفوف قوات بدر فيما اختار نفر منهم الذهاب إلى الحوزة العلمية. وقد اقترن اغلب هؤلاء بزوجات إيرانية أو عراقية وكوّنوا أسرا وعوائل انتشرت فى أرجاء إيران.

سنة ١٩٨٢ م تأسس المجلس الاعلى للثورة الإسلامية فى العراق بقيادة جمع من العلماء المجاهدين مثل السيد محمود الهاشمى والسيد محمد باقر الحكيم والسيد محمد تقى المدرسى والسيد على الحائرى والسيد كاظم الحائرى والشيخ الآصفى ومن تشكيلات حزب الدعوة الإسلامية ومنظمة العمل الإسلامى وحركة المجاهدين وبعض القوى المؤتلفة حول السيد محمد باقر الحكيم. ومن أهم انجازات المجلس الأعلى تشكيل فيلق بدر الذى كان بمثابة الجناح العسكرى للمجلس الذى يضمّ القوى العسكرية المختلفة فى تشكيل واحد منظم

ومنسجم، ليكون له فيما بعد دور مهم فى العراق.

عام ٢٠٠٢ م خرج حزب الدعوة ومنظمة العمل من خيمة المجلس الأعلى وبقى فيه فقط الأشخاص والكيانات الصغيرة التى تؤمن بزعامة السيد الحكيم. وقد عاد المجلس بعد سقوط النظام إلى العراق بمعية فيلق بدر كأكبر قوة سياسية ـ عسكرية شيعية تعمل بإمرة السيد محمد باقر الحكيم.

أما حزب الدعوة ومنظمة العمل، فقد ظلا محافظين على أسلوب عملهما الحزبى حتى وهما تشكيلان ضمن تشكيلات المجلس الأعلى على النحو الذى يستفيدان فيه من مزايا المجلس ومزايا الحفاظ على الهوية الخاصة بكل منهما.

وخلال ٢٣ سنة قضاها العراقيون الشيعة فى إيران، تمكن زهاء خمسة آلاف طالب عراقى من الدراسة فى الحوزة العلمية بقم المقدسة، فيما تلقى حوالى عشرين ألف عراقى تدريبات عسكرية فى فيلق بدر ومستفيدين من تجربة الحرب العراقية ـ الإيرانية ومن الدورات التى ينظمها الحرب الحرس الثورى، بالإضافة إلى تأهيل كوادر سياسية وإعلامية وثقافية فى صفوف الأحزاب والحركات.

ولقد استطاع هؤلاء الانتشار بسرعة فى المحافظات والمدن والقصبات العراقية الآهلة بالسكان الشيعة والذين حرموا لسنوات طوال من رؤية رجل الدين و ونشطت المساجد والحسينيات والمراكز الدينية والثقافية والمكتبات، وعملت هذه المراكز جميعاً على نشر الثقافة الدينية وتعميقها، على النحو الذى أعاد للنجف اشراقتها بعد غياب طويل.

وعلى المستوى العسكرى، ومن خلال توغّله فــى المجتمــع العراقــى تمكــن فيلق بدر من توسيع قاعدته الشعبية إلى أكثر من عشرة آلاف مقاتل تولّوا مهمــة مواجهة الحملات الإرهابية التى تستهدف الشيعة فى وسط وجنوب العــراق ولــم تثن عزيمة هذا الفيلق وأبنائه الممارسات التعسفية التــى أقــدمت عليهــا القــوات الأمريكية ضد كوادر الفيلق والتى بلغت حد الاعتقال والضرب والتنكيل. بــل إن البعض منهم انخرط فى صفوف الشرطة والجيش العراقى الجديد. لقد اســتطاعت الأحزاب العراقية العائدة من إيران إعادة ترتيب أوضــاع العــراق الجديــد بــدعم معنوى من المرجعية فى النجف وإسناد لوجستى من قبــل إيــران، وذلــك علــى الرغم من العقبات والعراقيل التى نجمت عن احتلال العراق. والشاهد على ذلــك اجراء الانتخابات والاستفتاء على الدستور وتشكيل الحكومة والمجلس وتأهيل الجيش والشرطة.(١)

عراق ما بعد صدام والمرجعية الشيعية

ان الظلم والممارسات اللا إنسانية التى طبعت سياسة البعث على مدى عقود ضد الشيعة والكرد وشرائح من العرب السنة، خلقت لأبناء الشعب العراقى وضعاً بحيث باتوا مستعدين للقيام بأى عمــل للإطاحــة بنظــام صــدام. دون أن يــأبهوا بعواقب ذلك. لقد أصبح همهم الأساس بعــد خمــس وثلاثــين ســنة مــن الظلــم والجــور والــتــعــســف هو إزاحة هذا الديكتاتور وحزبــه البغــيض عــن الحكــم

---

(١) إلى هنا ينتهى الاقتباس.

مهما كلف الأمر.

في هذا السياق لم يكن للمرجعية الشيعية أي دخل، فالسيد السيستاني يعيش في داخل العراق ويخضع لرقابة مشددة وليس له أي نوع من الاتصال بالخارج، على أنه كان يتفادى الإقدام على أي عمل من شأنه مضاعفة الضغوط البعثية على الحوزة العلمية، ومن هنا فقد حرص على لزوم بيته لسنوات طوال، وبذلك ساهم في حفظ الحوزة العلمية في النجف من نقمة النظام.[١]

أما خارج العراق فقد سلكت الأحزاب والتنظيمات المعارضة للنظام من الشيعة والأكراد والسنة طريقاً آخر.

إن مجيء أمريكا إلى المنطقة مردّه إلى دواع عديدة ؛ منها مشروع الشرق الأوسط الكبير، ومنها كبح جماح الإرهاب حيث يعتقدون ـ أو هكذا يدّعون ـ ان الحكومة العراقية على صلة بتنظيم القاعدة، والداعي الثالث تأثير بعض المعارضين العراقيين أمثال احمد الجلبي على القرار الأمريكي وإقناعهم بدخول العراق، مضافاً إلى السبب المعلن وهو البحث عن أسلحة دمار شامل استخفافاً بعقول الشعوب.

وبقدر ما يتعلّق الأمر بالعراقيين، فان المعارضة العلمانية العراقية والبعثيين السابقين والأحزاب الكردية والشيعية والعربية السنية، كانت لهم اجتماعات متواصلة للتخطيط للإطاحة بنظام صدام، وقد استثمروا الفرصة السانحة هذه في تحقيق حلمهم بالقضاء على نظام تسبّب في قتل وإبادة ملايين العراقيين في

(١) السيستاني ، النصوص الصادرة : ٩٤ .

غضون ثلاثة عقود.

ولقد نجح هؤلاء فى إقناع أمريكا بأن الإطاحة بصدام أمر سهل وان الشعب العراقى سيرحّب بهذه الخطوة ؛ الأمر الذى صدّقته الوقائع خلال الأشهر الأولى من سقوط النظام فى (٢٠٠٣\٤\٩). ولكن مع مرور الوقت، وبسبب الحماقات الأمريكية فى حل المشاكل العالقة وتلكؤها فى نقل السيادة إلى العراقيين وانتقال الإرهابيين إلى العراق من مختلف البلدان العربية (السنية) وباكستان والتآمر بين الدول العربية ممثلة بالسعودية واليمن والأردن والإمارات ضد العراق، كل هذه الأمور أسهمت فى تأزيم الأوضاع فى هذا البلد يوماً بعد يوم، ولا ننسى أيضا إن المرجعية الشيعية لم تتدخل إلى الآن فى ما يحصل فى العراق، رغم ان الشيعة لم يخفوا سرورهم للإطاحة بالنظام.

ومن حين تشكيل مجلس الحكم، ونظراً لكون الشيعة أغلبية مطلقة بحسب كل الإحصائيات والأرقام فقد أصبح لهم وزن مؤثر فى هذا المجلس. عندها راح السيد السيستانى يتدخل فى بعض القضايا الراهنة، وذلك فى ضوء ما يبدو له من ملاحظات محددة ومتواصلة بشأن قضايا هامة تطرح فى مجلس الحكم من قبيل الانتخابات وكتابة الدستور والاستفتاء عليه وتشكيل الجمعية الوطنية وانتخاب رئيس الحكومة وأيضا طريقة التعامل مع الاحتلال. وقد ارتكزت رؤى السيد السيستانى على المبادئ التالية :

المبدأ الأول : إيمانه العميق بدور الشعب فى تقرير مصير البلد فى إطار عراق متحد. وكان أبرز تجلّى لهذا المبدأ فى كتابة الدستور، حيث نعلم جميعاً إن

الأمريكان أرادوا اختيار جماعة لكتابة مسودة الدستور العراقى الدائم، أو أن يقوم بها نفس أعضاء مجلس الحكم الذى سبقت الإشارة إليه ومن أجل تمرير هذا المشروع جاءوا بالأخضر الإبراهيمى ممثلاً عن الأمم المتحدة فى العراق والتقى السيد السيستانى. وكان جلّ تركيزهم على قضية مفادها إن الظروف غير ملائمة فى الوقت الراهن لتنظيم انتخابات. ولكن السيد السيستانى رفض هذا الأمر بشدة، وأعلن بصراحة إن ممثلى الشعب العراقى هم فقط المخوّلون بوضع دستوره الدائم، ولا مشروعية لقيام مجلس الحكم بهذا الأمر المصيرى.[١] وقد أجاب على سؤال بهذا الصدد بما نصّه :

(إن تلك السلطات لا تتمتع بأية صلاحية فى تعيين أعضاء مجلس كتابة الدستور)، مشيراً إلى عدم وجود ضمانات بقدرة هؤلاء على وضع دستور دائم منبثق عن الهوية الوطنية والدينية والأعراف والقيم الاجتماعية لهذا الشعب. وبالتالى فان فكرة تعيين جماعة من قبل الأمريكان لوضع مسودة الدستور غير مقبولة من الأساس والحل الممكن الوحيد هو إجراء انتخابات عامة ينبثق عنها مجلس وطنى يتولى مهمة كتابة الدستور.[٢]

لم يستجب الأمريكان لهذا الطلب فى البداية، لكن إصرار السيد السيستانى على هذه القضية وتأكيده على عدم القبول بحلول بديلة ،[٣] حملهم على الإذعان للأمر الواقع، ما ترك تأثيراً ملموساً على مواد الدستور الدائم.

---

(١) السيستانى : ٤٩ .

(٢) السيستانى : ٣١-٣٢ .

(٣) السيستانى : ٣٦ .

المبدأ الثاني : وهو يرتبط بدوره كمرجع في القضايا الراهنة في العراق. ويعتقد السيد السيستاني بأن المرجعية لا ينبغي لها التدخل في الأمور التنفيذية والقضايا الجزئية، وجواباً على سؤال بهذا المجال قال : (المرجعية لا تمارس دوراً في السلطة والحكم).[١]

ولم يكن هذا الأمر ممكناً في العراق، بغض النظر عن رأيه بهذا الموضوع. ولهذا نجده يبدي رأيه في بعض المسائل ويجيب على بعض الاستفتاءات ذات الطابع السياسي نظير إجابته على سؤال بشأن رغبته في إيجاد دولة مماثلة لإيران ونظامها الإسلامي في العراق، حيث أجاب : كلا، ولكن نريد دولة تحترم أصل الدين الإسلامي وأحكامه الأساسية باعتباره دين الأكثرية الساحقة من المجتمع العراقي.[٢] وقد أوصى رجال الدين والطلاب بعدم زجّ أنفسهم في المجالات التنفيذية والإدارية، وليكتفوا بمهامّ التوجيه والإرشاد والإشراف على عمل المؤسسات التي تُعنى بإدارة شؤون المدن وحفظ الأمن وتوفير الخدمات العامة.[٣]

وقد حرص اكبر الحرص على عدم الاستفادة من نفوذه العام إلا بمقدار الضرورة وفي القضايا ذات الطابع المصيري حتى أنه تفادى كثيراً إبداء رأيه في اختيار الرجل الأكثر صلاحية لتولي منصب رئاسة الوزراء، تاركاً مثل هذه الأمور إلى صلاحية نواب الشعب وممثليه.

---

(١) السيستاني : ١٨ .

(٢) السيستاني : ٤٣ .

(٣) السيستاني : ١٢-١٦ .

وبالطبع، كان الشيء الأكثر أهمية وخطورة هو مسودة الدستور وكان يؤكد في هذا السياق على حق الشعب في تقرير مصيره، وان يأخذ كل مكون من مكونات الشعب العراقي حقه الطبيعي دون تمييز حسب المذهب أو العرق. وكانت آراء السيد السيستاني ووجهات نظره تجد طريقها إلى لجان كتابة الدستور. إن موقف السيستاني هذا دالّ على قناعته بان مهمة المرجع الديني الأعلى والذي يسمو بموقعه عن الاعتبارات الوطنية والقومية والفئوية، تفرض عليه التدخل في الخطوط العامة للنظام السياسي الحاكم في مجتمع يشكل المسلمون أغلبية ساحقة من أبنائه. ومن الطريف ان نعلم ان السيد السيستاني ورغم إقامته في العراق لأكثر من أربعين عاماً لم يتخلّ عن جنسيته الإيرانية وقد سافر إلى لندن بجواز سفر إيراني.

المبدأ الثالث : هو قناعة السيد السيستاني بالنظام العالمي في إطار هيئة الأمم المتحدة كمرجع في معالجة القضايا الخارجية، وبالديمقراطية كمرجع لمعالجة القضايا الداخلية عبر الانتخابات ومشاركة الشعب في تقرير المصير وانهاء الاحتلال الأجنبي، ولهذا عارض أي تحرك عسكري أو أسلوب إرهابي أو ميليشياوي لتحقيق الأهداف، وعمل جاهداً على تشكيل حكومة وطنية ومجلس نيابي مؤثر ممهداً بذلك الأرضية المناسبة لخروج القوات الأجنبية من العراق.

ومن الطبيعي ان يكون نفوذ السيد السيستاني مقتصراً على الوسط الشيعي في العراق الذي يشكل نسبة ٦٤٪ من مجموع السكان، مضافاً إلى أن الشيعة عانوا

من الاضطهاد الشديد على مدى عقود وقدموا مئات الآلاف من الشهداء. وكان من الواضح إن ممارسة السيد لدوره القيادى على قاعدة إعطاء كل ذى حق حقه كفيل بتفوق الشيعة بحكم نتائج ومعطيات العملية الديمقراطية. وهذا هو مقتضى الحق الطبيعى الذى وجد الآخرون أنه لن يخدم مصالحهم، ولهذا فتحوا الباب على مصراعيه من أجل تحويل العراق إلى حاضنة لقوى الإرهاب وإغراقه فى مستنقع من الدماء. مقابل ذلک استمر السيد السيستانى من خلال بياناته بالتعويل على الشعب العراقى ككل متفادياً الحديث بلغة السنة والشيعة تجنباً لإثارة المشاعر المذهبية، وخشية انجرار البلد إلى أتون فتنة طائفية. ومنذ الأيام الأولى صرّح بحقيقة ما يتطلع إليه من خلق ظروف مناسبة لانبثاق حكومة من نفس الشعب تمثل جميع طوائفه وأطيافه.[1]

وحين سأله احد مراسلى رويتر عن هوية الدولة التى يتطلع السيستانى إلى إيجادها ؛ هل هى قومية أم إسلامية ؟

أجاب (إن شكل الحكومة الجديدة للعراق يعيّنها الشعب العراقى بجميع قومياته ومذاهبه وعبر الانتخابات الحرة).[2]

ولهذا تمنّى على الحكومة المستقبلية للعراق ان تدارى وضع الأكثرية وان تحترم دين الغالبية المطلقة من ابناء الشعب ولا تصادق على قوانين مخالفة له.[3]

وفيما يرتبط بالشيعة والسنة كان يدعو إلى التفاهم والتوافق بين الاثنين

(۱) السيستانى : ۱۸ .
(۲) السيستانى : ۲۶ .
(۳) السيستانى : ۲۸ .

لحفظ المصالح العامة، وصرّح قائلاً بهذا الشأن : (هناك ارتباط قائم مع إخواننا من أهل السنة من خلال اللقاءات المباشرة وغير المباشرة، وثمة تقارب فى وجهات النظر تجاه القضايا المشتركة، وان الحوار هو السبيل الأوحد لحلّ الاختلافات).[١]

وحينما بلغت الخلافات الطائفية أوجها بعد نفوذ الوهابية وأتباع القاعدة إلى العراق وتحالفهم مع فلول البعثيين والذى أسفر عن اقتراف جريمة تفجير مرقدى الإمامين العسكريين عليهما السلام، ورغم كل الضغوط الشعبية باتجاه تأجيج الموقف والقيام بردّ فعل عنيف، بقى السيد السيستانى ملتزماً بمبادئ الحوار والتفاهم وإيجاد عراق واحد ومستقل.

وحتى فيما يرتبط بالفيدرالية لم يكن يوافق عليها من وجهة نظره الشخصى، لكنه أعلن انه لن يعترض عليها إذا اختارها الشعب العراقى عبر آلية ديمقراطية. تلك قضية لطالما أكد عليها آية الله السيستانى فى أحاديثه ولقاءاته وبياناته.

وطوال هذه المدة أكد على وجوب المحافظة على وحدة العراق أرضا وشعباً وان على السنة والشيعة العمل معاً من اجل الحفاظ على وحدتهم والدفاع عن ثوابتهم الدينية والوطنية.[٢]

وحين تمادى الإرهابيون فى أعمالهم الإجرامية وارتكبوا عمليات إبادة جماعية واستباحوا الدماء والأعراض، اتخذ موقفاً حازماً بوجههم، لكنه فى

---

(١) السيستانى : ٥٢ .

(٢) السيستانى : ٨٣ .

الوقت نفسه ظلّ مصراً على ضرورة ان يكون الحل قانونياً وذلك من خلال تقوية الحكومة واجهزتها الأمنية والعسكرية لا عن طريق الميليشيات والجماعات المسلحة.[١]

وكان يذكّر دائماً بمسؤولية قوات الاحتلال عن انهيار الوضع الأمنى فى العراق معتبراً إن الحلّ الأمثل يكمن فى قوة الحكومة واستلامها الملف الأمنى، كما اتخذ مواقف صريحة ضد التصرفات والتصريحات اللامسؤولة التى صدرت عن البعض نظير تصريحات حسنى مبارك التى حذّر فيها من خطر شيعى مزعوم.[٢]

المبدأ الرابع : ويختصّ بموقفه من الاحتلال، فلقد بيّن مكتب السيد السيستانى ان قوات التحالف ـ وحسب قرار مجلس الأمن ـ تعدّ قوة محتلة.[٣]

وعندما سأله احد المراسلين عن رأيه بتصريح بول بريمر بأن القوات الأمريكية باقية فى العراق حتى بعد تشكيل الحكومة، أجاب السيد السيستانى : كيف يتوقعون منا أن نؤيد بقاء قوات الاحتلال ؟![٤]

الشيء المهم هو أن المرجعية الشيعية ورغم حضورها الفاعل فى القضايا الراهنة فى العراق، إلا إنها تجنّبت أى ارتباط مباشر مع الأمريكان وحلفائهم، وأعلنت بصراحة أنها تعارض وجودهم فى العراق، وذلك فى جواب على سؤال

---

(١) السيستانى : ١٤٢ .

(٢) السيستانى : ١٤٧ .

(٣) السيستانى : ٤١ .

(٤) السيستانى : ٥٠ .

وجهته نيويورك تايمز بهذا الشأن.[١]

لقد وافق السيد السيستاني على لقـاء مبعـوث الأمـم المتحـدة إلـى العـراق سرجيو دى ميللو الذى قتل فى عمل إرهابى، وبعث الـسيّد رسـالة تعزيـة بهـذا الصدد إلى الأمين العام للأمم المتحدة.[٢]

لكن بالمقابل أحجم عن اجراء أى لقاء أو اتصال مع الحاكم الأمريكـى فـى العراق بريمر على طول مدة مكوث الأخير فـى العـراق. مـا عـدا تـسلم الـسيد السيستانى لرسالة جاء بها مندوب عـن بريمـر مـن دون ان يـسمح لـه باللقـاء شخصياً. ولكن بريمر كتب لاحقاً فى مذكراتـه ان المرجعيـة الـشيعية وبـضمنها السيد السيستانى كانت تحثّ أتباعها على التعـاون مـع قـوات التحـالف، إلا ان منتدى الفكر العراقى كذّب هذه الادعاءات، مؤكداً انه بقدر ما يتعلق الأمـر بأيـة الله السيستانى فإنه لم يرفع أى توصية التعاون مع قـوات التحـالف، وان مـشكلة بريمر تكمن فى أنه لم يلتق بالمرجعية يوماً، ولهذا فهو يعتمد على الـسماع مـن هنا وهناك.[٣]

وفى موضع آخر من مذكراته، برّر بريمر عدم لقائه شخصياً بالسيد السيستانى بأن مثل هذا الأمر لا يبدو مناسباً ومقبولاً بـين أوسـاط المـؤمنين. إلا إن بيـان منتدى الفكر العراقى عزا هذا الأمر إلى موقف مبدئى من قبل آية الله السيـستانى الذى كان يرفض اللقاء بقيادات قوات التحالف، كونهـا قـوات محتلـة لا يجـوز

---

(١) السيستانى : ١٧ .

(٢) السيستانى : ٥٤ .

(٣) انظر : تعليقات منتدى الفكر العراقى على مزاعم بريمر فيما يتعلق بآية الله السيستانى . السيستانى : ٤٢١ .

التعامل معها إلا أن اقتضت الضرورة ذلک.[١]

لقد أورد بريمر فی مواضع عديدة من كتابه، نقاط اختلاف متعددة بين الرؤى الامريكية ورؤى آية الله السيد السيستانی، وهی نقطة جديرة بالاهتمام.[٢]

هذا، وقد كذب بيان منتدى الفكر العراقی جميع مزاعم بريمر بشأن وجود مراسلات بينه وبين آية الله السيستانی، متحدين بريمر أن يعرض دليلاً ملموساً على ذلک، ومنوهين بأن أبواب مكتب آية الله السيستانی ظلت مفتوحة دائماً بوجه مختلف الشخصيات التی يمكن ان يكون لها دور مؤثر فی حلّ المشكلة العراقية باستثناء قادة التحالف طبعاً.[٣]

الأهم من ذلک، أنه على مدى الأعوام الماضية بعث الرئيس الأمريكی بوش برسالتين إلى آية الله السيستانی لكنه لم يجب على أیّ منهما. وذات مرة أبلغ احد المسؤولين العراقيين تحية من السيستانی إلى بوش، لكن مكتب السيد السيستانی نشر تكذيباً لهذا المدعی. وحين ذهب السيد إلى لندن لغرض العلاج بعث رئيس الوزراء البريطانی تونی بلير برسالة اليه، إلا ان هذه الرسالة ظلّت كسابقاتها بدون جواب. واستناداً إلى ما ذكر، لا ينبغی الشک فی أن المرجعية الشيعية أعرضت عن الاتصال بزعامات التحالف بأی نحو من انحاء الاتصال،

(١) نفس المصدر ، ص ٤٢١-٤٢٢ ، وفی هامش هذا الكلام ، جرى تكذيب ما ذكره كينغ فی الواشنطن بوست من أن السيد السيستانی لا يلتقی بغير المسلمين، وأن عدم لقائه ببريمر وسائر مسؤولی التحالف يأتی فی هذا السياق ، والدليل على كذب هذا الادعاء إن السيد سبق وأن التقی بمبعوث الأمم المتحدة إلی بغداد سيرجيو دی ميللو وغيره من مسؤولی الأمم المتحدة وهم من غير المسلمين فی الغالب .

(٢) نفس المصدر : ٤٢٣-٤٢٤ .

(٣) السيستانی : ٤٢٥ .

ولكنها فى الوقت ذاته لم تؤمن باللجوء إلى القوة فى التعامل مع الحلفاء.

وحينما انتهجت بعض التيارات منهج الكفاح المسلح ضد الأمريكان لم تحظ بتأييد ومباركة السيد السيستانى. واثناء أحداث النجف، حث كانت هناك خشية من هجوم الأمريكان على الصدريين ومحاصرتهم عسكريا بغية القضاء عليهم أو توجيه ضربة موجعة، كان مفتاح الحل لهذه المشكلة المعقدة بيد آية الله السيستانى الذى قطع سفرته للعلاج فى لندن وعاد إلى النجف وتدخل لحلّ الأزمة بشكل مشرف. إن المسار الذى ارتأته المرجعية الشيعية فى النجف حيال مشكلة الاحتلال، هو العمل على إيجاد عراق مستقل دستورى وتهيئة الأجواء لخروج القوات الأجنبية بشكل طبيعى. وعندما استفتى السيد السيستانى بشأن الدعوات التى انطلقت من بعض منابر الجمعة داعية إلى مقاومة المحتلين، بيّن وجهة نظره القائمة على خيار المقاومة السلمية لأجل التسريع بعملية استرجاع السيادة وتهيئة الأوضاع لانسحاب هادئ للقوات الأجنبية.(١)

فى غضون السنتين الأوليين بعد سقوط النظام حيث الأوضاع أكثر هدوءاً، كان السيد السيستانى ـ بالإضافة إلى كونه مرجعاً أعلى للشيعة ـ يلعب دور الشخصية البارزة فى العراق التى هى محط احترام واهتمام الجميع. وقد التقى به البارزانى والباججى والكثير من رموز العراق الجديد لأجل التشاور والتفاهم معه فى القضايا ذات الطابع المصيرى.

ولكن على مستوى حوزة النجف كان هناك ثلاثة مراجع تقليد آخرون، وهم

---

(١) السيستانى : ٤٥ .

: آية الله السيد محمد سعيد الحكيم وآية الله الشيخ محمد إسحاق الفياض وآية الله الشيخ بشير النجفي. وعلى طول المدة كان المرجع المطلق والمطاع هو آ ية الله السيستاني، وكان المراجع الآخرون يرجعون إليه في مهمات المسائل، ولم يظهر أي مؤشر على وجود خلاف بين هؤلاء. حتى السيد كاظم الحائري كان يرجع إليه في القضايا المصيرية، وهذا الأمر من مقتضيات الأدب المرجعي المعمول به في النجف، مضافاً إلى إيمان هؤلاء بخبرة وحكمة السيد السيستاني ودرايته.

يذكر أن الحقبة الصدامية شهدت من الظلم والتنكيل بحق الحوزة وأبنائها ما أدى إلى تفريغها من طاقاتها ورموزها ما عدا ثلة قليلة حسب ما ورد في كتابات آية الله السيستاني.[1]

ولكن الهدوء النسبي في أوضاع النجف للفترة ما بعد سقوط صدام مباشرة وعودة الكثير من رجال الدين المهاجرين من سوريا وإيران، هيّأ الأرضية لوثبة جديدة للحوزة كان مقدراً أن تعيد مكانتها الريادية للشيعة في العالم لولا الاضطرابات التي شهدها العراق لاحقاً وانسحبت على النجف نفسها فتأثرت بها كثيرا حركة الازدهار العلمي والثقافي.

من جهتها، أوصت قيادة الجمهورية الإسلامية ومراجع التقليد في إيران أكثر من مرة، بإتباع توجيهات آية الله السيستاني بشأن الأوضاع في العراق، وكانت آراؤه ومواقفه موضع تقدير وتأييد الجهات المعنية في إيران سواء على مستوى

(١) السيستاني : ٩٢ .

القيادة أو على مستوى الحكومة التى لم تألُ جهداً فـى التنـسيق مـع المرجعيـة العليا فى النجف فى جميع القضايا ذات الاهتمام المشترک. ولدى توجـه الـسيد السيستانى إلى لندن لغرض العلاج، نشرت بعض الصحف الإيرانية تحليلات غير مسؤولة، سرعان ما تم احتواؤها والتراجع عنها. هذا فى حال أن المناخ العام فى إيران حانق على الوضـع فـى العـراق، ولـولا الثقـة المطلقـة بمرجعيـة آيـة الله السيستانى وتوصيات قائد الثـورة الإسـلامية لكـان مـن الـصعب تقبـل موقـف المرجعية تجاه ما يجرى هناک.

لقد مرّت ثلاث سنوات حتى الآن، والعراق تحول فيها إلـى حمامـات دم لا يراد لها أن تجفّ، وكل ذلک نتيجـة الـسياسات الهوجـاء للأمريكـان والتـدخل الشامل من قبل الدول العربية فى شؤون العراق، والهدف من كـل ذلـک إرجـاع الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل سقوط نظام صدام من هيمنة الأقليـة والتـى لـم تنتج إلا عقودا من القهر والعذاب والقمع ضد الشيعة والأكراد. إن اسـتمرار هـذه الفتن وتعميقها أسهم فى خلط الأوراق على نحو لم يعد بمقدور أى كان السيطرة على مسارات الأحداث، وتحول العراق إلـى سـاحة لتـصفية الحـسابات نتيجـة تدخل الأجنبى وتآمر كل من لا يريد لشعب العراق أن يختار نمـط حياتـه كمـا يريد وعبر الآليات الديمقراطية المقبولة.

لقد أصدر آية الله السيستانى مؤخراً بياناً بشأن النزاعات الطائفية فى العـراق طالب فيه جميع الأحزاب والتجمعات والعشائر بوضع حدّ لنزيف الدماء وإدراک خطورة الأوضاع التى يعيشها البلد.

ويرى آية الله السيستاني ان السبيل الأوحد لحل هذه الأزمة هو الكفّ عن المعارك الطائفية ومراعاة تكافؤ الفرص لجميع المواطنين العراقيين في تقرير مصير بلدهم.(١) وهو يعتقد إن النزاعات الجارية الآن لا تعبر عن صراع مذهبي بين السنة والشيعة، بل هو شقاق سياسي تغذّيه الجماعات التكفيرية التي لها أهدافها الخاصة.(٢)

صفوة القول إن آية الله السيستاني بمنهجه العقلاني في التعاطي مع الوقائع ومراقبته للأحداث عن كثب سعياً للتأثير عليها من الصميم، لم يتوقف عند دور المرجع الأعلى للشيعة، بل تعدّاه إلى رمز مؤثر في عالم السياسة الدولية. إن المعطيات التي أفرزتها هذه القيادة على صعيد الوسط الشيعي الداخلي وعلى صعيد علاقة هذا الوسط بمحيطه الخارجي، كانت كبيرة وكثيرة، إلى درجة يمكن استثمارها بشكل أفضل ؛ الأمر الذي لم يتحقق. والمشكلة في ذلك لا تتعلق بالمرجعية، بقدر ما تتعلق بالوسط الشيعي نفسه وبقياداته التي ينبغي لها العمل على تهيئة الظروف أفضل لاستثمار هذه المعطيات، لكي يتسنى للشيعة الخروج من عنق الزجاجة (واقع الأقلية) إلى فضاء رحب يتيح لهم دور اكبر على الصعيد المحلي والإقليمي والعالمي.

---

(١) السيستاني : ١٥٤-١٥٥ (رسالة للشعب العراقي حول الفتنة الطائفية) .

(٢) السيستاني : ١٦٢ .

مصادر الكتاب

١ ـ آقا بزرک الطهرانی، الكرام البررة فی القرن الثالث بعد العشرة، تعليقات السيد عبد العزيز الطباطبائی، مشهد، دار المرتضی، ١٤٠٤ هـ

٢ ـ آل محبوبة، شيخ باقر، ماضی النجف وحاضرها، بغداد، مطبعة الآداب، ١٩٥٨.

٣ ـ آية الله العظمی السيد محمد رضا الكبايكانی به روايت اسناد ساواک، طهران، (فارسی).

٤ ـ احمدی، علی، اخراج ايرانيان از عراق، طهران، مركز اسناد انقلاب اسلامی، ١٣٨٥، (فارسی).

٥ ـ الفت، محمد باقر، كنج زری بود در اين خاكدان، اصفهان، ١٣٨٤ ش، (فارسی).

٦ ـ بطاطو، حنا، ال، طهران، ترجمة عفيف الرزاز، بيروت، ١٩٩٠.

٧ ـ البياتی، حامد، مقالة (المرجعية الدينية ودورها القيادی، السيد محسن الحكيم نموذجاً)، دار كتاب النجف الاشرف، اسهامات فی الحضارة الإسلامية ج ١، لندن، ٢٠٠٠.

٨ ـ الجابری، سيد علی، عروج سرخ، نظری كذار بر زيندكی ومبارزات شهيد سيد محمد صدر، قم، ١٣٨٢، (فارسی).

٩ ـ الجبوری، كامل سلمان، السيد محمد كاظم اليزدی، قم، مكتبة ذوی القربی، ٢٠٠٦.

١٠ ـ الجبوری، کامل سلمان، شیخ الشریعة، قیادته فی الثورة العراقیة الکبری ۱۹۲۰ ووثائقه السیاسیة، ۲۰۰۵.
١١ ـ الحائری، عبد الهادی، تشیع ومشروطیت ونقش ایرانیان مقیم عراق، ۱۳۶۴ ش. (فارسی).
١٢ ـ الحائری، سید علی اکبر، مصاحبة با عنوان (حوزة نجف، تلاش ها ومظلومیت ها) مجلة حوزة، سال ۴، ش ۱۶، صص ۶۳ ـ ۸۰. (فارسی).
١٣ ـ الحیدری، ابراهیم فصیح بن السید صبغة الحیدری البغدادی (م۱۸۸۲)، عنوان المجد فی بیان أحوال بغداد والبصرة ونجد، لندن، دار الحکمة، ۱۹۹۸.
١٤ ـ خاتم یزدی، خاطرات آیت الله، طهران، مرکز اسناد انقلاب اسلامی، ۱۳۸۱. (فارسی).
١٥ ـ الخرسان، صلاح، حزب الدعوة الإسلامیة حقائق ووثائق، دمشق، ۱۹۹۹.
١٦ ـ الخلیلی، جعفر، هکذا عرفتهم، بغداد، ۱۹۶۳ م.
١٧ ـ درینکل، سلیم، با عنوان (مبارزة با تشیع در عراق در دوران عبد الحمید دوم) ترجمة نصر الله صالحی، مجلة نامه، قم، شماره ۲، تابستان ۱۳۸۴ ش. (فارسی).
١٨ ـ رؤوف، عادل، مرجعیة المیدان، قم، ۲۰۰۱.
١٩ ـ الساعدی، حمود، دراسات عن عشائر العراق، بغداد، مکتبة النهضة، ۱۹۸۸.
٢٠ ـ سمامی، شیخ محمد، خاطرات، طهران، مرکز اسناد انقلاب اسلامی، ۱۳۸۵. (فارسی).
٢١ ـ سمامی، شیخ محمد، بیست سال تاریخ حوزة علمیة نجف، قم،۱۳۷۷. (فارسی).
٢٢ ـ سیلدت، موسی، تاریخ جغرافیایی عرب خوزستان، طهران، ۱۳۷۴. (فارسی).
٢٣ ـ السیستانی، آیة الله العظمی، النصوص الصادرة، اعداد حامد الخفاف،

بيروت، دار المؤرخ العرابى، ٢٠٠٧.
٢٤ ـ شبر، جسن، حزب الدعوة الإسلامية، ١٩٥٧ ـ ١٩٨٠، قم، مكتبة الامام الصادق عليه السلام، ١٤٢٧.
٢٥ ـ الشمرانى، محمد على، صراع الاضداد، لندن، دار الحكمة، ٢٠٠٣ م.
٢٦ ـ علم وجهاد، حياة آية الله العظمى محمد هادى الميلانى، قم ١٤٢٧ هـ.
٢٧ ـ العلوى، حسن، الشيعة والدولة القومية فى العراق ١٩١٤ ـ ١٩٩٠، لندن ١٩٩٠.
٢٨ ـ فاضل، البراک، المدارس اليهودية والايرانية فى العراق، بغداد ١٩٨٤.
٢٩ ـ فب مار، تاريخ نوين عراق، ترجمة محمد عباسبور، مشهد، ١٣٨٠. (فارسى).
٣٠ ـ فياض الحسينى، هاشم، لمحات من حياة الامام المجدد السيد الخوئى، بيروت، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، ٢٠٠.
٣١ ـ الكاظمى، محمد صالح، احسن الأثر فيمن أدركناه فى القرن الرابع عشر، بغداد، مكتبة النجاح، ١٩٤٣.
٣٢ ـ كوهستانى، مسعود، جالشها وتعاملات ايران وعراق در نيمه نخست قرن بيستم، (بر اساس اسناد وزارت خارجه) طهران، وزارت خارجه، ١٣٨٤. (فارسى).
٣٣ ـ مددى، سيد احمد، مصاحبه، مجلة حوزة، سال ٤، شماره ١٦، صص ٣٩ ـ ٦٢. (فارسى).
٣٤ ـ منظور الاجداد، سيد حسين، مرجعيت در عرصه اجتماع وسياست، طهران، شيرازه، ١٣٧٩. (فارسى).
٣٥ ـ النقاش، اسحاق، شيعة العراق، ترجمة عبد الاله النعيمى، بيروت وسورية، ١٩٩٦ م.
٣٦ ـ الوردى، على، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج ٣، بغداد، ١٩٧٢.